İslâm Araştırmaları Dergisi, Sayı 11, 2004, 39-73

المنظور الإسلامي والرموز الثقافية كمفهوم متعدّد الاستعمال في التخصّصات المعرفية الحديثة

محمود الذوادي* / Mahmoud Dhaouadi

The Nature of Culture from Islamic Epistemology

Modern social sciences have overused the concept of culture, but they have hardly raised the fundamental epistemological questions concerning the broad inside nature of cultural entity. Some sociologist and anthropologists have qualified culture as a non-bio-physiological feature of Homo sapiens, yet stopped short of spelling out the very essential nature of culture. This is what this essay will attempt to do. A thorough analysis of what we call cultural symbols (CS) –including language, thought, religion, knowledge/science, myths, law, cultural values and norms– has led us to conclude that CS have transcendental/metaphysical dimensions. On the one hand, CS have neither weight nor volume. On the other, they enjoy longer or semi-eternal lifespan. CS could also galvanize human actors with fatalistic metaphysical-like energies and motivations. Finally, the CS movement through space and time is potentially very fast or even instant, like metaphysical beings. Our paradigm of CS is strongly compatible with the Qur'anic view of culture that stresses the divine (transcendental/metaphysical) origin of human CS. As such, our analysis of culture and theorizing about it are greatly inspired by the Qur'anic epistemology on the very nature of CS. With this conceptualization of CS, the explanation of many phenomena of interest to social science and other disciplines becomes much clearer and more credible. For instance, why are cultural conquests considered to be the most dangerous? Why do cultural alliances last longer than military or economic alliances? Why are linguistico-cultural independences slower (Ogburn's Cultural Lag) than other types of liberations?

Key words: Culture, Cultural Symbols, Islamic Epistemology, Islamic View of Culture.

مقدمــــة

نستعمل في هذه الدراسة الرموز الثقافية كمفهوم قابل للاستعمال في العديد من التخصصات المعرفية (interdisciplinary). فالرموز الثقافية تعني عندنا تلك السمات التي تميز بطريقة جذرية الجنس البشري عن بقية الأجناس الأخرى. فاللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية. هي كلها سمات خاصة بالجنس البشري. ويبدو أنه بسبب الرموز الثقافية

---

* الأستاذ الدكتور، قسم علم الإجتماع، جامعة تونس.

© İSAM, İstanbul 2004

جاءت مشروعية قدرة الجنس البشري على الهيمنة على الأجناس الأخرى. ومن ثم تمثل الرموز الثقافية بحق العنصر الأساسي الأكبر المميّز لهوية الإنسان. وعلى هذا الأساس فإن تأثير الرموز الثقافية على أفراد الجنس البشري ومجتمعاتهم يتوقع أن يكون ضخما وشاملا. وبعبارة أخرى، فتأثير الرموز الثقافية على سلوكات بني البشر ومجتمعاتهم تأثير واسع ومتعدّد المستويات . نحاجّ بقوة في هذه الدراسة بأن تأثيرات الرموز الثقافية على الناس لا تقتصر فقط على الملامح الاجتماعية والنفسية والثقافية عندهم بل تمس أيضا حتى الجانب البيولوجي في هندسة خلقتهم(the bio-genetic-design). فالنظر إلى الرموز الثقافية بهذه الطريقة وإلقاء الضوء على مدى صحة افتراضاتنا يجعلان الرموز الثقافية مفهوما متعدد الاستعمال وذا مصداقية عالية. ونكتفي في هذه الدراسة باستعماله في تخصصات البيولوجيا والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية وفي طليعتها الفلسفة والدين.

أولا: ضرورة استعمال الرموز الثقافية في العلوم الاجتماعية والصحيحة

تمثل مقولتنا الرئيسية في هذه الدراسة في محاجتنا القوية بأن سلوكات الأفراد وحركيات مجتمعاتهم يجب أن تتأثر في المقام الأول بما يميّز الجنس البشري أكثر عن بقية الكائنات الحية الأخرى . وكما أشرنا، فنحن نعتبر الرموز الثقافية الفاصل الحاسم بين الجنس البشري، من ناحية، وبقية الأجناس الحيّة الأخرى، من ناحية ثانية. فمدلول الرموز الثقافية عندنا يتطابق، إلى حد كبير مع مصطلح الثقافة (culture) الواسع الاستعمال في العلوم الاجتماعية المعاصرة. تعتبر الرموز الثقافية، في رأينا، العنصر المركزي والأساسي لهوية بني البشر أفراد وجماعات ومجتمعات. وبعبارة أخرى، فالرموز الثقافية هي بيت القصيد في هوية الجنس البشري. فعلى مستوى أول، لا تستطيع الأجناس الأخرى أن تنافس كميا وكيفيا الجنس البشري في منظومة الرموز الثقافية (اللغة والفكر والدين والمعرفة/العلم والقوانين والأساطير والقيم والمعايير الثقافية). وباختصار، ينفرد البشر ومجتمعاتهم بتلك الرموز الثقافية. وعلى مستوى ثان، فبدون الرموز الثقافية لا يمكن أن يتأهل الجنس البشري وحده للخلافة فى هذا العالم/الكون والهيمنة عليه. وهكذا، فالرموز الثقافية تحتل المرتبة الأولى في تحديد تفوق الجنس البشري على الأجناس الأخرى. فالمركزية القصوى للرموز الثقافية في حياة الأفراد والمجتمعات البشرية تجعل تأثيرها مرشحا بقوة على شؤون الناس بما فيها المسائل الفيزيولوجية والعضوية. أي أننا لا نكاد نتخيل وجود سلوك بشري فردي أو جماعي بدون تأثير مباشر أو غير مباشر للرموز الثقافية. فالرموز الثقافية هي في الغالب القوى الكبيرة والصغيرة (macro-micro) المؤثرة والدافعة إلى تجسيم السلوك الإنساني الفردي والجماعي في حيز واقع الحياة الاجتماعية. أي أن الرموز الثقافية تلعب ، من جهة، دور المراقب للمؤثرات الداخلية في شخصيات الأفراد ودور المراقب على المؤثرات الخارجية، من جهة ثانية ، على السلوك البشري للأفراد والجماعات. وبعبارة أخرى، فالرموز الثقافية تقوم بدور الغربال في السماح أو

الاعتراض على العوامل المؤثرة والموجهة في نهاية المطاف لسلوكات أفراد الجنس البشري. إنها سلطة حراسة تحدّد نوعية السلوك الخاص الذي يتبناه الأفراد والمجموعات البشرية. إن تصوّرنا لطبيعة الرموز الثقافية، كما وصفناها، يقودنا بالتالي إلى اتخاذ موقف غير متعاطف مع رؤى العلوم الاجتماعية التي تعطي أهمية قصوى إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية (sociobiology) كقوى رئيسية لتحديد السلوك البشري. ففي تفسيراتهم لسلوكات الأفراد وحركيات المجتمعات يميل المفكرون الماركسيون إلى التركيز على العوامل الاقتصادية، بينما يعطي علماء الاجتماع الوظيفيون أهمية كبرى للبنى الاجتماعية للمجتمعات. أما علماء السوسيوبيولوجيا فهم يعطون دورا كبيرا للعوامل البيولوجية. ونحن نرى أنه على المختصين في العلوم الاجتماعية أن يأخذوا مأخذ الجد تلك العوامل في تحليلاتهم لسلوكات الأفراد وحركية المجتمعات، ولكن لا يجب مع ذلك النظر إلى تأثير تلك العوامل على أنه تأثير تلقائي وحتمي وأحادي الاتجاه مثله مثل تأثير الغرائز على سلوكات الحيوانات.

تفيد تحليلات العلوم الاجتماعية المعاصرة بأن الاختلافات في السلوكات وأنماط الحياة بين الأفراد في نفس المجتمع أو في مجتمعات مختلفة تعود في المقام الأول إلى فروق ثقافية. أي أن السلوك البشري يتأثر كثيرا بالعوامل الثقافية. يتجلى ذلك، مثلا، في التعامل مع المؤثرات البيولوجية ونظيراتها الاجتماعية والاقتصادية والبنيوية. فتأثيرات كل تلك العوامل على سلوكات الناس ومجتمعاتهم تتعرض في الغالب إلى مراقبة سلطة منظوماتهم الثقافية التي طالما تلعب دور الحكم الحاسم في توجيه سلوك الناس وحركيات مجتمعاتهم. وهكذا يتضح أن تأثير الرموز الثقافية على السلوك البشري هو تأثير قوي. وعلى هذا الأساس، فيجب أن تصبح الرموز الثقافية الإطار المرجعي الأول للمختصين في العلوم الاجتماعية الذي يساعدهم على فهم وتفسير السلوك الإنساني وحركية المجتمعات. فالظهور الأخير القوي لكل من علم النفس المعرفي (cognitive psychology) وعلم إجتماع الثقافة (sociology of culture) هو مؤشر بارز على ازدياد إهتمام العلوم الاجتماعية بالرموز الثقافية في تحليلاتها للمجتمعات وسلوكات أفرادها. وكما رأينا، فلهذا التطور الأكاديمي مشروعية كبرى بسبب الدور المركزي الذي تقوم به الرموز الثقافية في حياة الناس ومجتمعاتهم. ومن ثمّ، فليس من المبالغة توقع فروع أخرى من العلوم الاجتماعية وكذلك من العلوم البيولوجية أن تعطي أهمية كبرى للتأثير الحاسم للرموز الثقافية حتى على هندسة الكيان البيولوجي الجيني للإنسان (كما سنبيّن بالتفصيل في هذه الدراسة) ناهيك عن سلوكات الناس وحركية المجتمعات البشرية.

إن التأثير القوي للرموز الثقافية على التوجه والتحديد الفعلي للسلوك البشري لا يقتصر على فهمه وتفسيره على المستويين الصغير والكبير (الميكرو—الماكرو). يمثل أيضا طرحنا المفاهيمي للرموز الثقافية إطارا فكريا مفاهيميا صالحا للاستعمال في العديد من التخصصات المعرفية. وبعبارة أخرى، فالرموز الثقافية هي رؤية فكرية للعالم البشري (كأفراد ومجتمعات) حيث تعتبر الرموز الثقافية أهم العناصر

المركزية في الهوية البشرية. بهذا التصور تصبح منظومة الرموز الثقافية إطارا فكريا مرشحا للتنظير في العلوم الاجتماعية والعلوم البيو–جينية (bio–genetic). تعرّف النظرية الاجتماعية على أنها منظور فكري يسمح بتفسير ملامح وظواهر الحياة الاجتماعية. وبعبارة أخرى، فالرموز الثقافية تمكّن الباحثين الاجتماعيين (وغيرهم) من الانخراط النشط في البناء التنظيري على المستويين المكرو والماكرو للحياة الاجتماعية. ونظرا لأن الناس ومجتمعاتهم يتأثرون بقوة بعامل الرموز الثقافية، فليس من المفاجأة أن نعتبر منظومة الرموز الثقافية أداة فكرية ذات مشروعية للبناء التنظيري حول المجتمعات البشرية وأفرادها. وفي الختام، فالرموز الثقافية هي مفهوم تنظيري صالح للاستعمال في العلوم الاجتماعية والإنسانية في المقام الأول. لكن الأهمية الكبرى لهذا المفهوم التنظيري لا تقتصر على تلك العلوم بل تتجاوزها إلى العلوم البيولوجية وهذا ما سوف يتجلى في تحليلنا لموضوع هذه الدراسة. نستعمل مفهوم الرموز الثقافية لدراسة ظاهرة بيولوجية لا تكاد نجد بحوثا حولها في كل من العلوم البيولوجية، من ناحية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، من ناحية أخرى. إنها ظاهرة تمتع أفراد الجنس البشري عموما بمدى حياة أطول من نظيره عند أفراد الأجناس الأخرى.

ثانيا : مقولة غريبة

ليست مقولة هذه الدراسة مستوحاة من مطالعاتنا باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية في العلوم الاجتماعية والتخصصات الأخرى المرتبطة بها. ولا من اتصالاتنا الأكاديمية والعلمية مع الأصدقاء والزملاء في الجامعات ومراكز البحوث والمؤتمرات والندوات الفكرية في العديد من بقاع العالم. فقد صدمنا أول الأمر عندما بدأت فكرة علاقة الترابط (correlation) بين الرموز الثقافية وطول أمد الحياة الإنسان (lifespan) تأخذ طريقها تدريجيا في تفكيرنا. فتساءلنا لماذا لم يسبق لنا أن رأينا إشارة أو مرجعا لعلاقة الترابط هذه في كل الكتابات التي اطلعنا عليها في العلوم الاجتماعية وغيرها؟. فكان لنا شعور غريب إزاء هذا الأمر. لكن قلقنا بدأت تخف حدّته نوعا ما عندما حدثنا الزملاء والأصدقاء والطلبة عن علاقة الارتباط بين الرموز الثقافية وطول أمد حياة أفراد الجنس البشري. فقد عبر الكل عموما عن دهشتهم وحيرتهم بأنهم لم يفكروا هم أنفسهم في وجود العلاقة بين الرموز الثقافية وطول أمد حياة الإنسان. ونتيجة لذلك، فمن العسير أن يأمل المرء في العثور على أدبيات معاصرة للتخصصات المختلفة حول هذا الموضوع.

وكانت لنا صعوبة في واقع الأمر حتى في إيجاد معلومات حول معدل أعمار أفراد الأجناس الحية الأخرى. فالحاجة إلى تلك المعلومات هي بالتأكيد هامة بالنسبة للبحث في علاقة الترابط بين الرموز الثقافية وطول أمد حياة الكائنات الحية. فقررنا مكاتبة الجمعية الجغرافية الوطنية (National Geographic Society) وكذلك مجلة *Discover* بالولايات المتحدة الأمريكية. فكانت إجابة الجمعية

الجغرافية الوطنية بتاريخ 23/2/1995 كالتالي: «لم ننشر في *The National Geographic* مجلتنا أي مقال حول طول أعمار الحيوانات كما أنني (المسؤول في المجلة) لم أستطع العثور على كتاب في هذا الموضوع بمكتبتنا. ومع ذلك، فقد وجدت في كتاب *The World Almanac and Books of Facts 1994* بيانات حول أمد حياة بعض الحيوانات أرسلها مع هذا الخطاب لعلها تكون مفيدة لك نوعا ما».

أما مجلة Discover فلم ترد منها أي إجابة. فإما أنها لم تتسلم خطابنا، وإما أنها فضلت عدم الرد على الموضوع المطروح.

وانطلاقا من هذه الخلفية وجدنا أنفسنا في موقف حرج إن لم يكن متناقضا.

أولا، تخلينا أن فكرتنا حول وجود علاقة ترابط بين الرموز الثقافية وطول أمد حياة أفراد الجنس البشري هي فكرة خاطئة من الأساس. وهذا ما يفسّر عدم ذكرها في ما اطلعنا عليه من كتب ومجلات عديدة واستمعنا إليه في ندوات ومؤتمرات كثيرة. أو ثانيا، اعتقدنا أن فكرة الترابط هذه هي فعلا فكرة جديدة. فتحتاج إلى البحث الواسع والمتعمق حتى يمكن تعزيز مصداقيتها. فاخترنا البديل الثاني رغم ما فيه من تحديات عملية وأخطار كبيرة للباحث الذي لا يكاد يجد له من رفيق على هذا الدرب.

ثالثا: لماذا يتمتع البشر بأمد حياة أطول؟

تفيد كل من ملاحظات عامة الناس والعلماء بأن أفراد الجنس البشري يعيشون عموما أمد حياة أطول من ذلك الذي يعيشه أفراد بقية أجناس الكائنات الحية الأخرى. ومن ثم تأتي شرعية التساؤل عن أسباب هذا الفرق، وليس تساؤلنا هنا بالتساؤل الفلسفي أو بالطرح المشبع بالخيال الإنساني، بل نسعى للإجابة عن ذلك التساؤل بطريقة تحليلية تستعمل معطيات العلم والفكر الحديثين. فنقدم هنا وجهتي نظر: الأولى تستند على معطيات علمي البيولوجيا والمورّثات (genes/genetics)، والثانية تعتمد على ما سميناه بالرموز الثقافية.

دعنا الآن نتعرف على درجات الاختلاف في معدل طول أعمار عيّنة محدودة من عالم الحيوانات. إن معدل عدد السنين لعمر أمد حياة بعض الحيوانات هو كالتالي:

الأسود (١٥) والنمور (١٦) والنعاج (١٢) والبقر (١٥) والخنازير (١٠) والأرانب (٥) وقردة الجوريلا (٢٠) (Gorilla) والخيول (٢٠) والفيلة (٤٠).[١]

---

١ J. Wright, *The World Almanac and Book of Facts* (Kansas City, Andrews and Msmeel, 1994), 175.

أما معدل أمد حياة بني البشر فهو يزيد بكثير عن معدلات أجناس الحيوانات المشار اليها هنا. فحتى قبل ثورة العلوم الطبية والصحية الحديثة كان معدل أمد حياة الناس في كثير من المجتمعات الإنسانية حوالي ٤٠ عاما.

رابعا : منظور علمي البيولوجيا والمورّثات حول طول العمر

تميل رؤية علمي البيولوجيا والمورّثات إلى تفسير تمتع أفراد الجنس البشري بأعمار أطول من أعمار أفراد أجناس الكائنات الأخرى بسبب التركيبة البيولوجية ونوعية المورّثا ت (genes) التي يختص بها الجنس البشري. فدور عامل المورّثات وتأثيره الضخم على مصير الإنسان لا تكاد تنفك البحوث العلمية الحديثة على إبراز معالمه. فذهب بعض العلماء إلى تفسير السلوك الاجتماعي لبني البشر اعتمادا على المعلومات والمعطيات التي يمدهم بها علما المورّثات والبيولوجيا. فظهر فرع علمي حديث أطلق عليه اسم علم البيولوجيا الاجتماعية (sociobiology).[٢] يرى هذا الأخير بأن العديد من السلوكيات البشرية الاجتماعية مثل الانتحار وتحريم المجتمعات البشرية للزواج بين الإخوة والأخوات (inecest) متأثرة أساسا بمنطق المورّثات وبيولوجيا الإنسان.

يرى مختصو علم المورّثات بأن طول عمر الفرد تحدده طبيعة نوعية المورّثات التي رزق بها. فعلى مستوى أول يرى العلماء في هذا الميدان أن سن ١٢٠ عاما يعتبر أقصى عمر يمكن أن يبلغه الإنسان. أي أن مورّثات الجنس البشري تسمح لأفرادها ببلوغ مثل هذا السن الطويل، وهو ما لا تسمح به مورّثات أفراد أجناس الحيوانات والكائنات الحية الأخرى لأفرادها. وبعبارة أخرى، فنوعية المورّثات التي خلق بها كل جنس من أجناس الكائنات الحية هي التي تحدد الحد الأقصى من السنين الذي يمكن أن يصل إليه بعض أفراد كل جنس من هذه الأجناس. والأدلة العلمية الحديثة تفيد بأن تركيبة مورّثات الجنس البشري هي العامل الحاسم وراء تمتع أفراده بعمر أطول من أعمار أفراد أجناس الكائنات الحية الأخرى. لقد كتب أخيرا الكثير في الصحف والمجلات عن تلك العجوز الفرنسية جان كالمان (Jeanne Calment) التي بلغت سن ١٢٠ ومنحت من أجل ذلك "شهادة طول العمر".[٣] فالبحوث العلمية تدل أن سر طول أمد حياتها يرجع بالتأكيد إلى طبيعة مورّثاتها التي هي امتداد لمورثات أمها وأبيها. فقد عاشت أمها ٨٦ سنة، بينما توفي أبوها عندما بلغ ٩٣ عاما. يرى العلماء بأن الناس الذين يعيشون حياة طويلة ربما تكون لهم مورثات تعطيهم مقاومة خاصة ضد هجوم البقايا والمخلفات الكيميائية الناتجة عن عملية تغذية الجسم، الأمر الذي يؤدي إلى الإضرار بالمنوي الحيوي DNA مع تقدم الأفراد في السن . وهي ملاحظة

---

٢ E. Wilson, *Sociobiology: The New Synthesis* (Cambridge: Harvard University Press, 1975).

٣ مجلة الوسط، 6 مارس 1995، 68؛ *Time Magazine*, 6 March 1995, 18.

علمية تشير إلى إمكانية وجود نظام مناعة أفضل عند الجنس البشري من الأجناس الأخرى بخصوص التعامل مع الرواسب الكيمائية الناتجة عن عملية التغذية. إن مصداقية هذه الملاحظة تفسر ظاهريا سر تمتع أفراد الجنس البشري بأمد حياة أطول، ولكنها لا تفسر لماذا انفرد الجنس البشري عن بقية أجناس الكائنات الحية الأخرى بهذه المورّثات ذات نظام المناعة الأفضل الذي مكن أفراد الجنس البشري من التمتع بمعدل أمد حياة أطول. ولا ندري إن كان لعلمي البيولوجيا والمورّثات تفسير علمي بذلك يستمد معطياته وبراهينه من داخل هذين العلمين.

لقد راسلت بالبريد الإلكتروني في مطلع عام ٢٠٠٤ المجلة الأمريكية المعروفة (Scientific American) سائلا: لماذا يتطلب النمو والنضج البيولوجي والفيزيولوجي عند البشر زمنا أطول بكثير مما هو عند الأجناس الأخرى؟ ومع الأسف لاذت بالصمت. فإجابتها تساعد بالتأكيد على التعرف على الأسباب وراء طول أمد الحياة البشرية

خامسا: بطء نمو ونضج الرموز الثقافية وطول أمد حياة

إن روح البحث العلمي تتطلب طرح فرضية مناسبة لتفسير ظاهرة تميز أفراد الجنس البشري بأمد حياة أطول. إن الفرضية العلمية الأكثر ترشحا بهذا الصدد هي فرضية الرموز الثقافية التي يتميّز بها أيضا الجنس البشري، والتي تقول بأن الرموز الثقافية هي السبب الرئيسي في طول أمد حياة أفراد الجنس البشري. وبعبارة أخرى، فنحن نفترض هنا وجود علاقة قوية بين هاتين الميزتين عند الجنس البشري: الرموز الثقافية وأمد حياة طويل. ولشرح ذلك نقول إن بيولوجيا الإنسان ومورّثاته قد صمّمت بنظام مناعتها المشار إليه لكي تسمح لأفراد الجنس البشري بالتمتع بأمد حياة أطول من أمد حياة أجناس الكائنات الحية الأخرى، وذلك لتلبية حاجة لا توجد إلا عند الجنس البشري. فإعطاء الإنسان القدرة على البقاء حيّا لفترة أطول من حياة الكائنات الأخرى تلبي حاجة ماسة ومركزية في ذات الإنسان. إن تفرّد الجنس البشري بامتلاك عالم الرموز الثقافية هو في رأينا السبب الرئيسي في هندسة خلق الإنسان بيولوجيا ومورّثيا، هندسة تمكنه من العيش أطول من غيره من الكائنات الحية الأخرى. وبعبارة أخرى، فبيولوجيا الإنسان ومورّثاته كانت تهدف إلى القيام بوظيفة هامة عند الإنسان تتعدى مجرد إطالة أعمار أفراد الجنس البشري في حد ذاتها. تتمثل وظيفة إطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري في تمكين الرموز الثقافية عند الإنسان من النمو والتطور وبلوغ أوج نضجها، وهو أمر يبدو أنه يتعذر تحقيقه في عمر قصير لدى أفراد الجنس البشري. وهذا ما تؤيده دراسات عالم الرموز الثقافية. وكمثال على ذلك، فبينما يبلغ جسم الإنسان نضجه العضلي حوالي سن الخامسة والعشرين، فإن بداية مسيرة نمو التفكير الناضج للإنسان (كعنصر من الرموز الثقافية) لا تكاد تظهر قبل بلوغه العشرين عاما. أما صلابة نضج مداركه الفكرية فلا تبدو بشائرها إلا قبل سن الأربعين بقليل ولا يتم في الغالب نضجه الفكري الكامل إلا بعد تجاوزه الستين. كل هذا يشير إلى أن

عالم الرموز الثقافية يحتاج إلى أمد حياة أطول بكثير من أعمار الحيوانات حتى ينمو ويتطور ويبلغ مداه من النضج. وبعبارة أخرى، فنمو ونضج عالم الرموز الثقافية يحتاج إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف أو أكثر من الزمن الذي يحتاجه نمو ونضج عالم الجسد والأعضاء عند بني البشر.

سادسا: الفرق الزمني بين النمو العضلي واللغوي عند الطفل

وكمثال ثان لإبراز فكرة بطء الرموز الثقافية مقارنة بنمو جسد الإنسان وعضلاته نركز اهتمامنا على النمو العضلي للطفل، من جهة ، ونمو مقدرته اللغوية، من جهة ثانية. فمع بلوغه خمسة شهور من العمر يستطيع الطفل أن يتقلب بجسمه على كل الجهات (على الجانبين والبطن والظهر)، وعندما يصبح سنّه ثمانية أشهر يكون قادرا على الجلوس بنفسه، ويستطيع أن يقف بنفسه عند بلوغه أحد عشر شهرا من السن وعند احتفاله بأول عيد ميلاده يكون قادرا على المشي وحده.

أما لغة الطفل فهي تمر بمراحل عدة. فبين الأسبوع الرابع والثامن يلاحظ على الطفل القدرة على النطق (vocalization) والهذيل عندما يكون مع الآخرين أو منفردا. وتكون كلماته الأولى عادة تقليدا لكلام الكبار حوله وطالما تكون لهذه الأسماء لمسات عاطفية مثل أمي، وبابا. يظهر الطفل قدرة كافية على فهم اللغة عندما يبلغ سنتين من العمر. وتقتصر مهاراته اللغوية عادة في هذا السن على استعمال جمل ذات كلمتين أو ثلاث كلمات. ومع بلوغ الطفل بين أربع أو خمس سنوات من العمر يكون قادرا حينئذ أن يستعمل اللغة بطريقة مشابهة لاستعمال الكبار لها مع غياب استعمال التركيبات اللغوية المعقدة. وفي هذه السن يتراوح زاده اللغوي بين ٥٠٠٠ و ٧٠٠٠ كلمة، ولا تكاد تكتمل سيطرته على نحو اللغة إلا مع بلوغه اثني عشر سنة. فواضح من هذين المثالين أن نمو ونضج اللغة – وهي أم الرموز الثقافية – يحتاجان عند الطفل إلى زمن أطول مما يحتاجه نموه الجسدي والعضلي الذي يسمح له بالمقدرة على الوقوف والمشي منفردا. وعند الحديث عن تميز الإنسان بالرموز الثقافية وما لذلك من انعكاسات على سلوك أفراد الجنس البشري فإن ذلك يحتم علينا التعرّض إلى المخ/العقل الذي هو المصدر الأول والأخير لنشأة ونمو ونضج هذه الرموز الثقافية.

سابعا: المخ/العقل وإطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري

يرى العلماء أن وجود المخ/العقل عند الإنسان كان له انعكاسات تعزز بالفعل من حاجة أفراد الجنس البشري – بسبب تميزه بالرموز الثقافية – إلى أمد حياة أطول من بقية أمد حياة أفراد الأجناس الأخرى:

١— يلاحظ على مستوى نمو ونضج أجسام وعضلات أفراد الكائنات الحية أن نمو واكتمال نضج جسد الإنسان وعضلاته يأخذ زمنا أطول بكثير من بقية أفراد أجناس الكائنات الأخرى جميعا. فأرجع العلماء هذا التباطؤ في النمو الجسدي والعضلي إلى وجود المخ/العقل عند أفراد الجنس البشري. ومن ثم جاءت حاجة أفراد الجنس البشري إلى أعمار أطول حتى تتمكن أجسامهم وعضلاتهم بلوغ أقصى درجات النمو والنضج.

٢— إن وجود المخ/العقل عند بني الإنسان جعل مسألة ما يسمى في علم الاجتماع بالتنشئة الاجتماعية (socialization) عملية طويلة جدا من حيث عدد السنين اللازمة لهذه العملية وذلك إذا ما قورنت بعملية التنشئة عند بقية أفراد أجناس الكائنات الحية الأخرى. والتنشئة الاجتماعية هي عملية تعلم الفرد لرموز ثقافة بيئته ومجتمعه من لغة وعقائد دينية وتقاليد وأعراف ثقافية وتراث معرفي/علمي بحيث يصبح هذا الفرد عضوا كاملا في محيطه ومجتمعه. أي أن عملية التنشئة الاجتماعية الكاملة والناجحة تجعل الأفراد ينصهرون تماما في بوتقة ثقافة مجتمعهم. وهذا أمر لا يقع بين عشية وضحاها بل هو يدوم حتى سن المراهقة على الأقل. فطول مدة عملية التنشئة الاجتماعية عند بني البشر ترجع أساسا إلى بطء وصعوبة وتعقيد اكتساب رهان تعلم ودمج عالم الرموز الثقافية في الشخصية القاعدية (basic personality) لكل فرد من أفراد المجتمع. وهي عملية مستمرة لا تكاد تنتهي حتى مع التقدم في السن خاصة في المجتمعات الحديثة الدائبة التغيّر والتحوّل.

ثامنا: حتمية تأثير الرموز الثقافية

فتفوق الجنس البشري في طول معدل أمد حياة أفراده على بقية أفراد أجناس الكائنات الحية يرجع، كما رأينا، إلى عامل الرموز الثقافية. فنحن هنا أمام ما يمكن أن نطلق عليه بالحتمية الثقافية في قضية إطالة أو تقصير أمد حياة أفراد أجناس الكائنات الحية . فأجناس الكائنات الحية التي ليس لها الرموز الثقافية التي يتمتع بها الجنس البشري لا تحتاج في واقع الأمر إلى أعمار طويلة، لأن نموها البيولوجي والجسدي يتم بسرعة مناسبة لكل جنس يمكّن كل تلك الأجناس من القيام بوظائفها في العمر المعين بحيث تؤمّن استمرارية سلالة تلك الأجناس رغم قصر أعمار أفرادها بمقياس أعمار أفراد بني آدم. أما تميز الجنس البشري باكتساب عالم الرموز الثقافية فقد جاء ليفرض لزوم إطالة أمد حياة أفراد بني الإنسان أكثر من غيره من أجناس الكائنات الحية الأخرى، وذلك بطريقتين:

١— إن وجود المخ/العقل في أفراد الجنس البشري قد أطال عدد السنين التي يحتاجون إليها لاكتمال نضجهم العضلي والجسدي. فبينما يكتمل النضج الجسدي والعضلي عند بعض الحيوانات في السنة الرابعة أو الخامسة على الأكثر، فإن الإنسان لا يكاد يكتمل نضجه الجسدي والعضلي قبل بلوغه سن

العشرين. وهذا واقع بيولوجي فيزيولوجي يتطلب إطالة عمر أفراد الجنس البشري للقيام بوظائفهم اللازمة التي تضمن استمرارية سلالة بني الإنسان.

٢– وكما بينا، فإن طبيعة نمو ونضج عالم الرموز الثقافية في حد ذاتها هي أبطأ بكثير في سرعة نموها ونضجها من بطء النمو والنضج الجسدي المشار إليهما عند الإنسان. وحتى تقوم الرموز الثقافية بوظائفها الكاملة في حياة الإنسان ومسيرة المجتمعات والحضارات الإنسانية كان لابد من تمديد أمد حياة أفراد الجنس البشري. وهكذا يتبين أن تمتع أفراد الجنس البشري بمعدل أعمار أطول من أفراد أجناس الكائنات الحية الأخرى يرجع في المقام الأول إلى عامل الرموز الثقافية الحاسم، ومن ثم يمكن القول بأن متطلبات الرموز الثقافية المشار اليها هنا هي التي أملت هندسة مورّثات الجنس البشري هندسة خاصة تمكّن أفرادها من التمتع بأعمار أطول من أعمار بقية أفراد أجناس الكائنات الحية الأخرى. وهي رؤية تقلب منظور السوسيوبيولوجيا رأسا على عقب. وكما ذكرنا، فهذه الأخيرة ترى أن الكثير من السلوكات الاجتماعية تتأثر بمعطيات بيولوجيا ومورّثات أجسام أفراد الجنس البشري. أما مقولة منظورنا في هذا البحث فهي تشير بوضوح إلى أن العوامل الثقافية أثرت بدورها في هندسة طبيعة بيولوجيا ومورثات الجنس البشري. وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم البيولوجيا المتثاقفة (acculturized biology) إن مثل هذا الطرح هو طرح متناغم مع الرؤى العلمية الجديدة التي تنادي أكثر فأكثر بتجاوز الرؤى الأحادية الضيقة الأفق إلى رؤى متعددة الأبعاد تقبل مبدأ دراسة الأشياء على أنها ظواهر معقدة تؤثر فيها عوامل مختلفة، من جهة، وتتبادل هذه العوامل المؤثرة عمليات التأثير والتأثر في ما بينها، من جهة ثانية.[٤]

تاسعا: علم البيولوجيا والمورّثات والرموز الثقافية

إن علاقة الارتباط القوية بين طول أمد حياة الإنسان والرموز الثقافية لا نكاد نجد أي إشارة إليها في الرصيد العلمي الهائل في العصر الحديث. وكما ذكرنا من قبل، فلا علم البيولوجيا ولا علم المورّثات (Genetics) يعطي أي دور للرموز الثقافية في إطالة عمر الإنسان أكثر من طول أعمار غالبية الأجناس الحية الأخرى. فبالنسبة لهذين الفرعين مما يسمى بالعلوم الصحيحة، فإن تفسير طول أمد حياة الإنسان ينبغي أن يكون وفقا لمنظور ومعطيات كل من علمي البيولوجيا والمورّثات. ولا يعني هذا أنهما يتجاهلان تماما علم الرموز الثقافية ، بل بالعكس، فإنهما يؤكدان أن الرموز الثقافية هي التي تجعل أفراد

---

٤ M. Hunt, *The Universe within: A New Science Explores the Human Mind* (New York: Simon and Schuster, 1982), 279; H. Gardner, *Art, Mind and Brain : A Cognitive Approach to Creativity* (New York: Basic Books Inc., 1982), 75; E. Morin, *Introduction à la pensée complexe* (Paris: E.S.F., 1990).

الجنس الإنساني بشرا.[٥] ولكن، مع ذلك، فعلما البيولوجيا والمورّثات لا ينظران إلى بيولوجيا ومورثات الإنسان عبر الرموز الثقافية الإنسانية كما فعلنا من خلال مفهومنا للبيولوجيا المتثاقفة، كما أنهما لا يقولان الشيء الكثير حول العلاقة بين الرموز الثقافية، من ناحية، وبيولوجيا ومورثات الإنسان، من ناحية أخرى، وبالتالي فلا ينتظر منهما الاعتناء بفهم طبيعة الرموز الثقافية نفسها ولا بسبب نموها ونضجها بطريقة بطيئة. وبعبارة أخرى، يصعب توقع أي مساعدة من هذين الفرعين من العلوم الحديثة لكي نجيب على بعض الأسئلة الرئيسية حول جوهر طبيعة الرموز الثقافية. وكما ذكرنا من قبل، فإن صمت مجلة (Scientific American 2004) عن تساؤلاتنا حول هذا الموضوع يفيد ربما غياب الاهتمام العلمي الغربي بدراسة العلاقة بين الرموز الثقافية والجوانب البيولوجية والفيزيولوجية في الإنسان.

عاشرا: فقدان اللمسات الميتافيزيقية عند العلوم الاجتماعية الحديثة

عندما نلقي نظرة على أدبيات العلوم الاجتماعية الغربية الحديثة، فإننا لا نكاد نعثر على إشارة لمفهوم اللمسات الميتافيزيقية للرموز الثقافية كما نستعمله في هذه الدراسة وغيرها من كتاباتنا في هذا الموضوع.[٦] وكمصطلح مرادف لمفهوم الثقافة، كما عرّفها عالم الأنثروبولوجيا البريطاني ادوار تيلر (Edward Tylor)، فإن الرموز الثقافية وجدت اهتماما كبيرا خاصة لدى علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع. فقد درس هذان العلمان بطريقة مستفيضة الديانات واللغات والقيم والأعراف الثقافية والسحر والمعرفة/العلم والفكر والأساطير. فهناك اليوم عدد لا يكاد يحصى من الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي كتبت حول وظائف وسرعة أو بطء انتشار الرموز الثقافية في المجتمعات البشرية. لقد استعمل كثيرا علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرون مفهوم الرموز الثقافية لتحليل وتفسير سلوك الأفراد والجماعات في المحيط الاجتماعي الذي ينتمون إليه. وعلى سبيل المثال، فقد استعملت القيم الثقافية والعقائد الدينية التي يشترك فيها الأفراد لتفسير تشابه السلوكات الجماعية بين الأفراد رغم اختلاف شخصياتهم على عدة مستويات. ومن ثم فالرموز الثقافية هي، مثلا، أرضية أساسية للتضامن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات وبالتالي لظهور وتبلور ظاهرات المجتمعات البشرية نفسها. فمفهوم الرموز الثقافية هو إذن عامل/متغير (variable) حساس وهام في دراسة حركية السلوك الإنساني سواء كان سلوكا فرديا أو جماعيا. ومقارنة بالسلوكات غير البشرية التي تتأثر أساسا بالعوامل الغريزية عند الحيوانات وغيرها من الكائنات الحية، فإن معظم السلوكات البشرية تؤثر فيها بقوة العوامل الثقافية التي ينفرد بها الجنس البشري. يفصح كل هذا، بدون أي شك، بأن الرموز الثقافية تلعب دورا حاسما في توجيه السلوك البشري وتحديد معالمه.

---

٥ C. E. Richer and Th. Easton, *A Focus on Human Biology* (New York: Harper Collins Publishers Inc., 1992), 603.

٦ M. Dhaouadi, *Toward Islamic Sociology of Cultural Symbols* (Kuala Lumpur, A.S. Noordeen, 1996), 43–49.

يسود هذا النوع من التحليل لتأثير الرموز الثقافية على السلوك البشري في العلوم الاجتماعية الحديثة. ويمكن تسمية ذلك بالمنهج الثقافي السلوكي (cultural behaviorist method) ينظر هذا الأخير إلى الرموز الثقافية باعتبارها عوامل خارجية في المحيط الاجتماعي دون إعطاء أهمية لفهم الجانب الباطني الخفي لتلك الرموز الثقافية. فالمعروف عن علماء النفس السلوكيين أنهم يزدرون من دراسة العوامل الخفية (غير الملاحظة) التي يمكن أن تؤثر في واقع الأمر على سلوك الإنسان. فعدم تعاطفهم مع علم النفس المعرفي (cognitive psychology). لأنه يدرس الجانب الباطني للعقل، ومع التحليل النفسي لأنه يدرس تأثير اللاشعور على السلوك أمر موثّق ومعروف في أدبيات علم النفس. وكما هو منتظر، فعلم النفس السلوكي ليس له اهتمام بدراسة الملامح الخفية للرموز الثقافية مثل الجوانب المتعالية/الميتافيزيقية (transcendental) المشار إليها سابقا. فعلى سبيل المثال، إن الإطلاع على كتب علم الاجتماع التي يقرأها الطلبة في الجامعات الأمريكية كمقدمات (introduction to sociology) في هذا العلم تؤكد غياب الإشارة ومناقشة الجوانب المتعالية للرموز الثقافية. فمعظم تلك الكتب لها عادة فصل حول الثقافة حيث يقع إعطاء تعاريف للمفاهيم الثقافية ثم شرحها ومناقشتها وتطبيقها في الواقع الاجتماعي. ومع ذلك، فلا نتذكر أننا قرأنا في أي من هذه الكتب أي إشارة إلى الجوانب المتعالية/الميتافيزيقية للرموز الثقافية التي نعكف على دراستها منذ بداية التسعينات من القرن الماضي. يمكن تفسير هذا الوضع بروح العلم الغربي المعاصر. فمن جهة، يميل هذا العلم إلى دراسة الظواهر التي يمكن ملاحظتها وقياسها وصياغتها صياغة كمية، ومن ثم، فهناك ما يشبه الموقف العدائي إزاء الظواهر التي لا يستطيع دراستها المنهج الوضعي (positivist approach). ومن جهة أخرى، يصبح ابتكار منهجية مناسبة لدراسة الظواهر غير القابلة للملاحظة والقياس والصياغة الكمية تحديا كبيرا للعدد القليل من المتخصصين في العلوم الاجتماعية الذين يؤمنون بشرعية استنباط هذه المنهجية الكيفية الجديدة للتعامل تعاملا معرفيا ذا مصداقية مع منظومة الرموز الثقافية للكشف عن طبيعتها وخبايا تأثيراتها على سلوك الأفراد والجماعات. يمثل مفهومنا للرموز الثقافية المتعدد الرؤى أداة مشروعة في هذا الميدان، إذ أنها تعطي أهمية للأبعاد الموضوعية وغير الموضوعية التي تؤثر في السلوكات البشرية.

حادي عشر: صعوبة تأهل العلوم الاجتماعية الحديثة لموضوع هذه الدراسة

إن القصور الكامل لعلمي البيولوجيا والمورّثات، من جهة ، والقصور الجزئي للعلوم الاجتماعية الحديثة، من جهة أخرى، على دراسة الجوانب غير المجسمة والمحسوسة للرموز الثقافية يجعل كل هذه العلوم غير مؤهلة لمساعدتنا بجدية على فهم الجوانب الميتافيزيقية، مثلا، للرموز الثقافية.

فمن الناحية المنهجية هناك حاجة ماسة لاستكشاف الملامح الكيفية للرموز الثقافية. فقد أكدنا في الصفحات السابقة أن هناك علاقة ترابط قوية بين الرموز الثقافية البشرية وطول أمد حياة الإنسان. ففي العلوم الاجتماعية الحديثة، تفسّر عادة علاقات الترابط بين الظواهر الاجتماعية بطريقتين:

١– علاقة مباشرة بين السبب والمسبب، أي أن ظاهرة ما هي السبب المباشر لظاهرة أخرى.

٢– علاقة غير مباشرة بين السبب والمسبب، وهذا يعني أن الظاهرة قيد الدرس ليست نتيجة مباشرة للظاهرة الأخرى الموجودة في علاقة الارتباط بل هي حصيلة لما يسمى في العلوم الاجتماعية بالمتغير (العامل/السبب) المتدخل (intervening variable). وهذا الأخير هو عامل مختلف عن الظاهرة الموجودة في علاقة الترابط.

يمكن القول بأن علمي البيولوجيا والمورّثات والعلوم الاجتماعية الحديثة لاذت عموما بالصمت بالنسبة للسبب (أو الأسباب) المباشر أو غير المباشر الذي يجعل النمو والنضج الكاملين للرموز الثقافية يأخذ وقتا أطول (من حيث عدد السنين) مما يحتاج إليه النمو والنضج الكاملان لأعضاء الجسم البشري. فالمختصون في العلوم الاجتماعية هم، بكل تأكيد، واعون بهذا الأمر. ولكن لا يكاد يجد المرء في أدبيات العلوم الاجتماعية الضخمة تفسيرات في صيغة سبب ومسبب أو متغير متدخل لهذا الفرق الزمني في عمليات النمو والنضج بين المكونات العضوية والرموزية الثقافية لذات الإنسان: الجانب العضوي للجسم البشري وجانب الرموز الثقافية. فبدلا من ذلك، يجد الباحث في هذا الرصيد الضخم للعلوم الاجتماعية الحديثة تحليلات ذات منهج وصفي. وبعبارة أخرى، يقع التعامل مع الرموز الثقافية كما يمكن وصفها وتحليلها موضوعيا وظاهريا دون الإشارة لا إلى سبب بطء نمو الرموز الثقافية أو بقائها مدة أطول (أفكار الإنسان ، مثلا، قد تصبح خالدة على مر العصور) من أعضاء الجسم البشري ولا إلى اعتبار احتمال وجود ملمح كيفي خفي في الرموز الثقافية يتجاوز المجال الموضوعي الملاحظ الذي يتبناه العلم الوضعي (positivist science).

ثاني عشر : مدى تأهل المنظور الإسلامي كبديل

فهناك حاجة، إذن، إلى تبني منظور مختلف عن المنظور التقليدي السائد في العلوم الاجتماعية الحديثة، ينبغي أن يكون هذا المنظور متوازنا، أي أنه يدرس الرموز الثقافية من الداخل ومن الخارج على حد سواء. فيركز على الجوانب المحسوسة والملحوظة. والجوانب غير الملحوظة الذاتية (subjective) والمتعالية (transcendental) للرموز الثقافية. وبعبارة أخرى، فهناك حاجة إلى منظور يستطيع أن يساعد على الإجابة على بعض الأسئلة الخاصة بالرموز الثقافية والتي لم تثرها العلوم الاجتماعية الحديثة أو لم تكن تهتم بالإجابة عليها. وفي المقابل، يهتم بها ويثيرها الدين والفلسفة من العلوم الإنسانية. وقد أكدنا أن مفهومنا للرموز الثقافية متأثر في صياغته برؤى متعددة للتخصصات المعرفية. ومن ثم، فهو صالح وواسع الاستعمال فيها. ومن أجل ذلك اخترنا المنظور الإسلامي لسببين: أولا، لقد مر الآن أكثر من عقد على بداية اهتمامنا الخاص بدراسة الرموز الثقافية. فكتابنا *Toward Islamic Sociology of*

Cultural Symbols[٧] يعكس بكل تأكيد ذلك الاهتمام قبل هذا التاريخ . ثانيا، يوجد في القرآن عدد كبير من الآيات التي تتحدث عن الازدواجية كملمح رئيسي لكل ظواهر الكون. ومنه فالرموز الثقافية لا ينبغي أن تكون ذات طبيعة واحدة فقط، ظاهرية، ملحوظة محسوسة. بل ينبغي أيضا أن يكون لها جوانب خفية، ذاتية، متعالية. فالمنظور القرآني يؤكد على أن طبيعة الرموز الثقافية حبلى بلمسات الروح الإلهية (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) كما سيتجلى في هذه المقالة. أما العلوم الاجتماعية الحديثة فهي تدرس أساسا الجوانب الخارجية الظاهرية للرموز الثقافية وبإهمالها للجوانب الذاتية والمتعالية للرموز الثقافية، تكون غير موضوعية وغير محايدة علميا في تعاملها مع الرموز الثقافية. ومن هنا فمصداقية رصيد العلوم الاجتماعية الحديثة من مفاهيم ونظريات وأطر فكرية (paradigms) حول الرموز الثقافية يتوقع أن تشكو كثيرا من القصور.

إن استعمالنا للمنظور الإسلامي في تحليل الرموز الثقافية يرمي إلى بلوغ هدفين رئيسيين ينسجمان انسجاما كاملا مع مقولة هذه الدراسة.

١– كسب معرفة ذات مصداقية حول الطبيعة الباطنية للرموز الثقافية. فكما أشرنا سابقا، فالرموز الثقافية تنمو وتنضج بطريقة أكثر بطأ من نمو ونضج أعضاء الجسم البشري. والسؤال المشروع في هذا السياق هو: ما الذي يجعل الرموز الثقافية بطيئة في نموها ونضجها؟

٢– هل تستطيع معطيات السؤال (١) أن تفسر أو تعطي معنى لعلاقة الترابط القوية بين الرموز الثقافية، من ناحية، وتمتع أفراد الجنس البشري بأمد حياة أطول من أمد حياة أفراد الأجناس الحية الأخرى، من ناحية ثانية؟ إن مدى تأهل المنظور الإسلامي لاستكشاف أسرار الرموز الثقافية في الصفحات التالية سوف يقع قياس نجاحه بنوعية مصداقية الأجوبة التي يمدنا بها هذا المنظور على السؤالين الرئيسيين المشار إليهما أعلاه.

ثالث عشر: ما هي طبيعة الرموز الثقافية؟

إن الوصف والتحليل الموجزين السابقين للدور الحاسم الذي ربما تلعبه الرموز الثقافية في إطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري هو نوع من الطرح الوضعي (positivist)، أي أننا اقتصرنا على وصف حقائق محسوسة حول الرموز الثقافية وتأثيرها في إطالة عمر أفراد الجنس البشري. إن هذا التوجه البحثي غير كاف، كما يؤكد على ذلك التوجه الجديد في علم الاجتماع، لتلبية هاجس حب الإطلاع والمعرفة عند الباحث في العلوم الاجتماعية بحيث يسمح له ببلورة فهم وتفسير متينين حول السبب (أو الأسباب)

٧ M. Dhaouadi, *Toward Islamic Sociology of Cultural Symbols* (Kuala Lumpur: A. S. Nordeen, 1996).

الذي جعل الرموز الثقافية عاملا حاسما مكن أفراد الجنس البشري من التمتع بأمد حياة أطول من أمد حياة أفراد الأجناس الحية الأخرى. ومن ثمّ، فهناك حاجة إلى تجاوز مجرد التوجه الوصفي للرموز الثقافية والقيام بإثارة أسئلة حساسة حول طبيعة الرموز الثقافية نفسها، ما هي طبيعة الرموز الثقافية التي تؤهلها من تمكين الإنسان من أمد حياة أطول؟ وبعبارة أخرى، فماذا يوجد في الرموز الثقافية بحيث يؤخر بعدد كبير من السنين — مقارنة بالأجناس الحية الأخرى — النمو والنضج الكاملين لأعضاء جسم الإنسان؟ وما الذي يجعل الرموز الثقافية تبلغ أوج نضجها في مرحلة متأخرة من حياة الإنسان؟ ليست هذه الأسئلة أسئلة ميتافيزيقية بل هي أسئلة واقعية يجب إثارتها ومحاولة الإجابة عليها عبر بعض الرؤى من التخصصات المعرفية. إذ بدون القيام بذلك، فإنه يصعب الأمل في إرساء معرفة موثوق بها تساعدنا على فهم أكثر مصداقية للعوامل التي نتميز بها كجنس بشري.

فالأمر الجلي هنا يتمثل في أنه لا علم البيولوجيا ولا علم المورّثات قادر على مساعدتنا على فهم طبيعة الرموز الثقافية. يبدو أن هذه الأخيرة تمثل عالما مختلفا عن العالم العضوي لجسد الإنسان. وهذا ما يجعل الرموز الثقافية لا تتبع نفس مسار النمو والنضج الذي نجده عند أعضاء الجسم البشري. وبعبارة أخرى، فكينونة الإنسان كينونة مزدوجة الطبيعة. فالحاجة ماسة، إذن إلى تبني طريقة مختلفة مناسبة لفهم أسرار الرموز الثقافية. وربما يؤدي هذا إلى تعديل أو حتى إلى التخلي عن المبادئ الرئيسية للمنهج الوضعي الحديث. فأهم شيء في إرساء معرفة ذات مصداقية علمية لا يتمثل في المنهج المستعمل في حد ذاته الذي يدعي الموضوعية المطلقة ، بل يتمثل في إرساء تفاسير متينة للظواهر المدروسة تتعاون فيها أكثر من رؤية معرفية. فاخترنا نحن المنظور الإسلامي لاستكشاف الطبيعة الخفية لعالم الرموز الثقافية لقدرته على ذلك، كما سوف نرى.

رابع عشر: الطبيعة البشرية في القرآن

ولكي نتعرف على المنظور الإسلامي بشأن طبيعة الرموز الثقافية، فليس هناك أفضل من القرآن النص المرجعي الأول في الإسلام، تتحدث العديد من الآيات القرآنية بكثير من الوضوح عن الطبيعة البشرية. لقد اخترنا آيتين لوصفهما بالكامل العناصر الأساسية التي تكون الطبيعة البشرية (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[8] فالطبيعة البشرية مزدوجة التركيبة في هاتين الآيتين. فهي تتكون من طين ومن نفخة الروح الإلهية. فأي هذين العنصرين أكثر أهمية بالنسبة لكينونة الطبيعة البشرية من وجهة النظر القرآنية؟ إن محاولة فهم معنى الآيتين قد يقود المرء إلى القول بأن القرآن يعطي أهمية أكبر إلى النفخة الروحية الإلهية التي تحتوي

---

٨ سورة الحجر، 15/28–29.

عليها الطبيعة البشرية. إذ أنه طلب من الملائكة السجود لآدم بعد، وليس قبل، حدوث النفخة الروحية الإلهية في ذات آدم. فسجود الملائكة أمام آدم هو إشارة رمزية على مدى قوة الاحترام الإلهي الذي يستقبل به مجيء هذا المخلوق الجديد المستخلف على الأرض وفي الكون من طرف الله. فالموقف القرآني المشيد بجانب النفخة الروحية الإلهية في ذات الإنسان هو مبدأ أساسي وثابت يسود كل النص القرآني. فيتكرر التمجيد والإشادة عبر سور القرآن بأن فلاح وتميز وسمو شأن الأفراد والمجموعات والمجتمعات والحضارات تتم فقط عندما تتغلب النفخة الروحية الإلهية في الطبيعة البشرية على الجانب المادي (الطين، الصلصال) من كينونة الإنسان.

خامس عشر : معنى النفخة الروحية الإلهية عند المفسرين

لقد اهتم المسلمون في الماضي والحاضر بتفسير معاني آيات القرآن. اخترنا عينة محدودة من مفسري القرآن الذين كتبوا تفسيراتهم باللسان العربي وباللغة الإنجليزية. ففخر الدين الرازي المتوفى عام ١٢١٠ وأحمد الأنصاري القرطبي الذي مات حوالي ١٣٩٣ يعتبران من أشهر المفسرين في ماضي الحضارة الإسلامية. أما في العصر الحديث فاخترنا تفسيرين معروفين جدا. أحدهما للمفسر المصري الذائع الصيت سيد قطب والآخر لنظيره التونسي محمد طاهر بن عاشور. وبالنسبة لتفاسير القرآن التي كتبت بالانجليزية فإن تفسير يوسف علي ومحمد أسد يعتبران أهم تفسيرين مرجعيين للمسلمين المتحدثين باللغة الإنجليزية. يفسر الرازي كلمة الروح كالريح الذي يمكن أن يستنشقه الشخص، يعترف الرازي بأن المعرفة الحقيقية لنفخة الروح الإلهية أمر غير متيسر للبشر.[٩] ولا يختلف تأويل القرطبي لكلمة نفخة الروح الإلهية عما وقع ذكره عند الرازي ، ففي رأيه، تشبه الروح الإلهية الريح ذات الكينونة اللطيفة.[١٠] أما بالنسبة لسيد قطب فهو ينظر إلى الروح الإلهية على أنها تلك النفخة التي مكنت الجنس البشري من تجاوز حدود تكوينه الطيني (المادي) والاتصال بالآفاق الروحية حيث تلتقي العقول والقلوب،[١١] ومن جهة أخرى يرى محمد الطاهر بن عاشور أن نفخ الروح الإلهية في آدم يتمثل في الرمز لعظمة الإنسان عند الله.[١٢]

يعطي يوسف علي المعنى التالي لمعنى نفخة روح الله في الإنسان "إن نفخة الله لروحه في الإنسان تعني أن الله قد أعطى الإنسان معرفة وإرادة تشبه معرفة وإرادة الله، وعند استعمال الإنسان لهما بحق فإنهما قادرتان أن تمنحا الإنسان التفوق والسمو على بقية الأجناس الحية الأخرى ".[١٣] أما بالنسبة

٩ فخرالدين الرازي، تفسير القرآن (بيروت، دار الفكر،1981)، 12: 185–186.
١٠ أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (بيروت: دار الكتاب العربي للنشر، 1967)، 10: 24–25.
١١ سيد قطب، في ظلال القرآن (بيروت: دار المشرق، 1985)، 4: 2138–2139.
١٢ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التنوير والتحرير (تونس: الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ)، 14: 43–47.
١٣ Y. Ali, *The Holy Quran: Translation and Commentary* (Brentwood/Maryland (USA): Amana Corporation, 1989), 625.

لمحمد أسد فهو يفسر النفخة الروحية الإلهية كالتالي :" إن نفخة الله من روحه في الإنسان هي بدون شك ضرب من المجاز وتعني في نهاية الأمر إعطاء الإنسان الحياة والشعور بالروح".[١٤]

ويظهر من التفسيرات الستة لكلمة الروح بأنها عموما تفسيرات غامضة تنقصها الدقة والوضوح بالنسبة لجوهر الطبيعة المحدد لنفخة الروح الإلهية في الإنسان. ولعل تفسير يوسف علي لكلمة الروح أكثر التفاسير الستة مصداقية. وكما وقعت الإشارة من قبل، فإن كلمة الروح تعني عنده المعرفة والإرادة الإلهيتين اللتين منحتا للإنسان فقط. فمثل هذا التفسير يحاول تحاشي التورط في الغموض والتعميم اللذين نجدهما في التفسيرات الخمسة الأخرى. وبعبارة أخرى، فإن تفسيره لنفخة الروح الإلهية كمعرفة وإرادة ذاتي جذور في المعرفة والإرادة الإلهيتين وقع تمييز الإنسان بهما يمثل وثبة فكرية طلائعية تساعد على التعرف بأكثر واقعية وموضوعية على العناصر المحددة لطبيعة النفخة الروحية الإلهية نفسها في الإنسان.

سادس عشر: تجسيم مفهوم النفخة الروحية الإلهية

يقع استعمال المفهوم الإجرائي (operational concept) في العلوم الاجتماعية الوضعية الحديثة لتحديد الظاهرة المدروسة بما يستخدم في ملاحظتها وقياسها. ومن ثم، فإنه ينبغي على المتخصصين في هذه العلوم أن يحاولوا صياغة الظواهر الاجتماعية والأفكار المبهمة في مؤشرات وملاحظات محسوسة، أي صياغتها قدر الإمكان في معطيات كمية وقابلة للقياس بحيث تصبح تلك الظواهر والأفكار مجسمة وقابلة للتعامل معها إمبريقيا.

إن عملية الامبريقية هي بدون شك مستوحاة من إبستيمولوجيا العلم والمعرفة الوضعيين الغربيين الحديثين. فتعتمد هذه الإبستيمولوجيا بشدة في فهمها وتفسيرها للظواهر على العوامل والأسباب الكمية والقابلة للقياس. يختلف نجاح عملية الإمبريقية من صنف من الظواهر إلى صنف آخر. وعلى سبيل المثال، فما يسمى بالظواهر الذاتية (المشاعر الشخصية، الآراء...) يصعب صياغتها صياغة إمبريقية وذلك خلافا للظواهر المادية المحسوسة في المحيط الخارجي، ومع ذلك، فلابد من بذل الجهود اللازمة للوصول قدر الإمكان إلى التعرف على الجوانب الخفية للظواهر المبهمة الغامضة. وكما ذكرنا، فإن معنى النفخة الروحية الإلهية في الآية القرآنية في تفسيرات المفسرين الستة يبقى غامضا، ومن هنا نحتاج إلى ابتكار منهجية جديدة تتجاوز مبادئ المنهج الوضعي وتكون قادرة على تحريرنا من استعمال رموز مبهمة وعامة لا تساعد على الحصول على فهم قريب وأكثر واقعية لطبيعة النفخة الروحية الإلهية التي يتحدث عنها القرآن. ومن أجل استجلاء الغموض الذي يحيط بطبيعة النفخة الروحية الإلهية اخترنا تبني المنهجية التالية:

---

١٤ M. Assad, *The Message of the Qu'ran* (Gibraltar, Dar al-Andalus, 1980), 386.

١ــ يجب علينا التعرف بطريقة موضوعية وبمؤشرات محسوسة على تلك العناصر التي يتميز بها الجنس البشري عن بقية الأجناس الحية الأخرى وتجعله يتصف بالتفوق والسيادة عليها. وكما أشرنا من قبل، فالرموز الثقافية (اللغة والفكر والعقائد والمعرفة/العلم والقيم والمعايير الثقافية والقوانين والأساطير...) هي التي تميز أكثر من غيرها من الصفات الجنس البشري عن غيره من الأجناس الأخرى.

٢ــ إن الآيتين القرآنيتين المشار إليهما هنا تتحدثان بوضوح حول مكانة الإنسان المتميزة بين بقية الكائنات الأخرى في هذا الكون بما فيها الملائكة أنفسهم الذين دعاهم الله للسجود لآدم. ويبدو من سياق الآيتين أن نفخة روح الله في ذات الإنسان هي السبب الرئيسي وراء تبوء الجنس البشري هذه المكانة الخاصة في الكون. فالتعبير القرآني في الآيتين يوحي بأن الله طلب من الملائكة السجود لآدم بعد وليس قبل حدوث وقوع نفخة روح الإله في صلب الذات الآدمية.

فالتحليل الموضوعي للنص القرآني بهذا الصدد يشير بكل وضوح إلى تفوق وسيادة جنس الإنسان على بقية الأجناس الأخرى. فمن جهة، ترجع العلوم الاجتماعية الحديثة مثل علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأنثروبولوجيا، تفوق الجنس البشري على بقية الأجناس الأخرى إلى تميز الإنسان بمهارات عالم الرموز الثقافية. ومن جهة ثانية، يستوحى من النص القرآني بأن سيادة الإنسان وخلافته في الكون ترتبطان شديد الارتباط بنفخة روح الله في صميم ذات الإنسان. وفي رأينا لا يكاد يوجد أي تناقض بين المنظورين. إذ أنه يمكن اعتبار أن الرؤية القرآنية تنظر إلى الرموز الثقافية على أنها أهم جزء على الأقل من نفخة روح الله في الإنسان. ومن ثم يتفق المنظوران على الدور الحاسم الذي تلعبه الرموز الثقافية في تميز الجنس البشري وتفوقه على بقية الكائنات الحية الأخرى. ومع ذلك، فيجوز أن يكون لنفخة روح الله في الذات الأدمية معنى أوسع من مجرد مفهوم الرموز الثقافية. أي أن نفخة روح الله تشمل كل شيء يميز البشر عن غيرهم من الكائنات. إن الرسم أسفله يبين النقاط المشتركة بين عالم الرموز الثقافية ونفخة روح الله كعنصرين أساسيين لتميز وتفوق الجنس البشري.

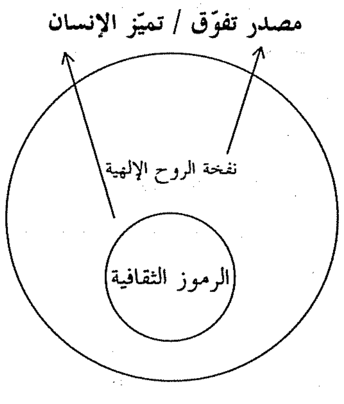

لقد أوضح تحليلنا المنهجي الطبيعة الشاملة لنفخة الروح الإلهية. فنحن نرى أن هذه الأخيرة يجب أن تشمل أول ما تشمل الرموز الثقافية. وبعبارة أخرى، فالرموز الثقافية يجب أن تكون العنصر المركزي في نفخة الروح الإلهية أو أن تكون الرموز الثقافية هي كل نفخة الروح الإلهية نفسها في ذات آدم. وبهذه الرؤية تصبح ماهية النفخة الروحية الإلهية أقل غموضا مما كانت هي عليه في تفسيرات المفسرين الستة المشار اليهم سابقا. ويحسّن هذا الوضوح بكل تأكيد في إرساء فهم أفضل لمعني "... ونفخت فيه من روحي... وما لذلك من انعكاسات إيجابية على المستوى النظري للبحث العلمي في منظومة الرموز الثقافية وعلى الميستوى التطبيقي والمتمثل في دور الرموز الثقافية في تأهيل الجنس البشري وحده للخلافة في هذا العالم/الكوْن.

سابع عشر: طبيعة الروح الإلهية

إن تأكيدنا على أن الرموز الثقافية، هي على الأقل، جزء مركزي من نفخة الروح الإلهية لا يضع حدا، بأي حال من الأحوال، لفضولنا كبشر لنتسائل: ما هي بالضبط الروح الإلهية التي تشير الآيات القرآنية إلى نفخها في صميم ذات الإنسان؟ فنحن معشر البشر لا نستطيع الإدعاء بأننا نملك إجابة دقيقة وكاملة على هذا السؤال الهام. وكخطوة أولى نحو القرب من الإجابة نحتاج إلى معرفة كاملة بالروح الإلهية. ويبدو أن الحصول على مثل تلك المعرفة يتجاوز المقدرة البشرية. والعديد من الآيات القرآنية تتحدث بهذا الصدد عن محدودية المعرفة البشرية (يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).[١٥]

وعلى مستوى آخر، فالقرآن يعلن بكل وضوح بأن الذات الإلهية فريدة في صفاتها (ليس كمثله شيء)[١٦]. ومن ثم فلا نحن قادرون على مقارنة ذاته بما نعرفه بالحواس الخمس ولا نحن في موقف يسمح لنا بالإدعاء بأننا نملك فكرة ملموسة حول طبيعة الروح الإلهية. فصورة الله في القرآن هو ذلك المطلق المتعال. لا يمكن إدراكه ولا تصوره بحواس الإنسان الخمس (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار...)[١٧]، وفي الغالب يتصور البشر الله على أنه **ذات متعالية** لا يكاد البشر يقدرون حتى على مجرد تخيّلها. إن العلم الوضعي الحديث والفلسفات القديمة والمعاصرة لا تساعدنا كثيرا على كسب معرفة كافية حول الذات الإلهية ونفخة روحها. فمن ناحية، لقد تحاشى العلم الوضعي الحديث كليا تقريبا موضوع الوجود الإلهي وذلك على أسس أيديولوجية ومعرفية ومنهجية. ومن ناحية أخرى، بقيت الفلسفة القديمة ميتافيزيقية في طريقتها لدراسة الذات الإلهية. وقد ذهب بعض الفلاسفة المعاصرين إلى حد الإعلان عن موت الإله، فنيتشه مثال على ذلك.

١٥ سورة الإسراء، 85/17.
١٦ سورة الشورى، 11/42.
١٧ سورة الأنعام، 106/6.

ثامن عشر: تجليات الجوانب الإلهية المتعالية في الرموز الثقافية

إن التأكيد على أن الرموز الثقافية هي جزء مركزي من نفخة الروح الإلهية في الإنسان ليس بالأمر الكافي في هذا الصدد. فنحن نحتاج إلى بيان كيف أن نفخة الروح الإلهية تتجلى في بعض الرموز الثقافية نفسها. نقدم هنا ثلاثة أمثلة للرموز الثقافية التي تعكس بعض الملامح لجوانب نفخة الروح الإلهية. فالتجليات الثلاثة هي:

١- اللغة ولمساتها الميتافيزيقية:

يؤكد القرآن الكريم خلود الذات الإلهية (هو الأول والآخر)[١٨]. (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[١٩]. إن بعض الرموز الثقافية تتصف هي الأخرى بالبقاء الطويل أو حتى الخلود. فدعنا نلق نظرة قصيرة على اللغة كأهم الرموز الثقافية جميعا لنر كيف أنها قادرة على إطالة أو تخليد حياة الأفراد والجماعات البشرية.

إن ملامح اللمسات الميتافيزيقية في الأنساق اللغوية لا تحتاج إلى عناء لإثباتها. فاللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا[٢٠]، ومن ثم فهي مهيأة أكثر من غيرها لحمل ومضات عالم اللامحسوس وفقا لرؤيتنا لعالم الرموز الثقافية للإنسان. ويمكن الاقتصار على ذكر وتحديد أربعة ملامح في تشخيص الملامح الميتافيزيقية للغة كرمز ثقافي يتميز به الجنس البشري:

أ- لا تخفى بالتأكيد المنـــزلة التي تتبوأها اللغة في ثورة المعلومات التي تحدث عنها توفلر (Toffler) وغيره من المختصين في هذا الميدان. فسرعة التواصل الآني وفي لمح البصر بين الأفراد والمجتمعات اليوم تتم أساسا بواسطة الوحدة الرئيسية التي تكوّن النسق اللغوي والمتمثلة في الكلمة (الاسم، النعت والفعل والحرف والرقم...) فإن سرعة تنقل الكلمة المكتوبة والمنطوقة في عالم اليوم لا ترجع إلى تقنيات الاتصال العصرية فحسب وإنما تتأثر هذه السرعة في العمق بطبيعة اللغة نفسها كأهم رمز ثقافي يملكه بنو البشر. فالتواصل باللغة في شكليها المنطوق والمكتوب حوّل عالمنا هذا تحويلا جذريا وأضفى عليه مع تحسن تقنيات الاتصال (عن طريق الهاتف والفاكس والانترنت) صفات العجائب والغرائب. فأصبح تخاطب الناس والتقاط الخبر في حينه رغم المسافات الشاسعة يوحي بما يمكن أن نسميه بالبعد الميتافيزيقي لوجود الكائنات البشرية في هذا العالم، ومنه تتجسم بطرح جديد ثنائية كينونة الإنسان. فالصياغة التقليدية لطبيعة الإنسان تتمثل في كونه جسما روحا. أما التصور الجديد لكينونة الإنسان والذي بلورته ثورة المعلومات فهو يتمثل في أن الإنسان جسم قابع هنا على سطح الأرض أو سابح في الفضاء... لكنه متصل ومتواجد عن طريق اللغة هناك على بعد خيالي على هذه الأرض وفي

١٨ سورة الحديد، 3/57.
١٩ سورة الرحمن، 26/55-27.
٢٠ L. White, *The Evolution of Culture* (New York: Mc Graw Hill Inc., 1959).

ذلك الفضاء الرحب. فهذه الثنائية الجديدة الملامح تطرح الجانب الميتافيزيقي القديم (الروح) لهوية الإنسان في ثوب جديد يظل رغم جديته ذا وشائج صلبة مع عالم الماورائيات واللامحسوسات التي لم يقدر الإنسان بصفة عامة عبر تاريخه الطويل أن يلغيها تماما من إحساسه ومن حدسه ومن فكره العقلي والعلمي في القديم والحديث على حد سواء.[٢١]

ب- أما على مستوى قدرة اللغة على تخليد الأفراد والجماعات رمزيا عبر الزمان والمكان، فالمعطيات الميدانية تؤكد ذلك. فعلى المستوى الجماعي تمكن اللغة المكتوبة على الخصوص المجموعات البشرية من تسجيل ذاكرتها الجماعية والمحافظة عليها وتخليدها وذلك رغم اندثار وجودها العضوي والبيولوجي كمجموعات ورغم إمكانية تغييرها للمكان وعيش أجيالها المتلاحقة في عصور غير عصورها. فمحافظة لغة الضاد محافظة كاملة على النص القرآني خير مثال على مقدرة اللغة التخليدية بخصوص حماية الذاكرة والتراث الجماعي من واقع الفناء المتأثر بالتأكيد بعوامل الزمن والبيئة والوجود الجسمي المادي لذات تلك المجموعات البشرية. وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد، فالكتّاب العباقرة في كل الحضارات الإنسانية وعبر العصور المتلاحقة ما كانوا ليستطيعوا تخليد أفكارهم ونظرياتهم بالكامل لولا توفر اللغة المكتوبة المتطورة على الخصوص في ثقافاتهم.[٢٢] فأفلاطون وأرسطو وأخناتون والمعري وابن خلدون وابن رشد وروسو وماركس... ما كان لأفكارهم أن تصمد أمام عوادي الزمن لقرون طويلة وربما لأجل غير مسمى، لو أنها لم تحفظ في لغات مكتوبة. وباختصار، فالأنساق اللغوية تسمح لرصيد ذاكرات الشعوب وأفكار الشخصيات اللامعة بالتمتع بالقليل أو بالكثير من سمات الخلود والأزلية.

ت- لقد تحسنت مقدرة الرموز الثقافية على السماح للإنسان بالتمتع بنوع من الخلود بسبب استمرار توالي الاكتشافات التقنية الحديثة في ميدان الالكترونيات المتقدمة. فتسجيل الصوت والصورة الملونة عبر عملية الترميز (codification) يعد مثالا حيا على مقدرة الرموز الثقافية على تخليد الكلمة والصوت والصورة الحية الطبيعية للكائنات الحية والظاهرات الجامدة. فصناعة الفيديو هي أكمل طريقة إلى حد الآن في تخليد الإنسان عبر الرموز الثقافية. فيه يتم اليوم تسجيل الكلمة ونبرات الصوت وحركة جسم الفرد أو الجماعة في أكمل صورة عفوية طبيعية.

ث- فعلى المستوى الثقافي يقترن استعمال اللغة أيضا بدلالات ماورائية. أفلا يلجأ البشر من كل العقائد والديانات إلى استعمال الكلمة المنطوقة في تأملاتهم الكونية وتضرعاتهم وابتهالاتهم إلى آلهتهم أو أي شيء آخر يعتقدون بأزليته أو قدسيته؟ بتميّزه باللغة البشرية عن بقية الكائنات يستطيع الإنسان أن يحرر نفسه من العراقيل المادية لهذا العالم ويقيم علاقات وروابط مع العالم الميتافيزيقي. فبالمقدرة

---

٢١ M. Hunt, *The Universe within: A New Science Explores the Human Mind,* 315-353.

٢٢ T. Parsons, *So cietes: Evolutionary and Comparative Perspectives* (Englewool Cliff, N.J.: Prentice–Hal, 1966).

اللغوية ينجح بنو البشر في فك حصار المشاغل الدنيوية والآنية. وهكذا يصبح لقاؤهم بالبعد الميتافيزيقي في شتى مظاهره أمرا لا مفر منه. فهم يرونه في أحلامهم ويحفل به خيالهم ويلتقون به عن قرب في تجاربهم الدينية.

٢— اللمسات الميتافيزيقية لقيم الحرية والعدالة والمساواة.

وكمثال ثان لتشخيص ما سميناه باللمسات الميتافيزيقية التي ينطوي عليها عالم الرموز الثقافية نعرض لقيم العدالة والمساواة والحرية... أي كيف أنها تحول سلوكيات البشر خاصة في بعض الحالات إلى سلوكيات وكأنها متأثرة بقوى ماورائية. ولتبيان ذلك بأكثر ما يمكن من الوضوح يتحتم القيام ببعض الملاحظات أو المقدمات كما فعل ابن خلدون في فصول مقدمته الشهيرة.

إن الملاحظة الميدانية لكل من عالم الأجناس البشرية وعوالم بقية الدواب الأخرى تفيد، من ناحية، بأن سلوكيات هذه الأخيرة تتأثر في العمق بالمؤثرات الغريزية وأن سلوكيات بني الإنسان تتأثر في المقام الأول، من ناحية أخرى، بعامل الرموز الثقافية، وهذا ما يفسر استمرارية التطابق الكامل أو شبه الكامل في سلوك كل نوع من أنواع الحيوانات والحشرات والطيور والزواحف... عبر الأجيال المتلاحقة عبر الزمان والمكان.

وأما بالنسبة لنوع الجنس البشري فهناك تنوع كبير في نمط السلوكيات الرئيسية والهامشية على حد سواء من حضارة إلى حضارة ومن مجتمع إلى مجتمع ومن جيل إلى جيل. إن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا المعاصرين متفقون على أن هذه الاختلافات في أنماط السلوك بين هذه التجمعات البشرية وداخلها تعود أساسا إلى تأثيرات الثقافة عالم الرموز الثقافية عندها من ديانات وتقاليد وأعراف وقيم ومنظومات معرفية.[٢٣] وبعبارة أخرى، فالكائن الإنساني يستمد من عالم الرموز الثقافية حرية العمل والاختيار والاختلاف عن الآخر. ومن ثمّ، فالسلوك البشري يتمتع بإمكانيات ضخمة من المرونة، أي أنه تحكمه حتمية مرنة لا حتمية متصلبة مثلما هو الشأن في عالم سلوك الحيوانات والدواب. وليس من العجيب، من هذا المنطلق، أن تفشل تنبؤات مختصي دراسات السلوك البشري في الكثير من الحالات في تقييمها للتوقعات الحقيقية لسلوك الناس. إذ أن علماء النفس أو علماء الاجتماع طالما يبنون تلك التنبؤات المنتظرة حول السلوك الإنساني على أرضية حتمية صلبة ذات قوانين لا تعترف بمبادئ الحرية والإرادة والاختيار... في معادلة المؤثرات على السلوك البشري. ومن اللافت للنظر بهذا الصدد أن قيم الحرية والعدالة وغيرها من القيم التي نادى بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل لم تلق أي اعتناء علمي يذكر من طرف علماء السلوك الفردي والجماعي المحدثين (علماء النفس والاجتماع). ورغم ما لتلك القيم

٢٣ N. Smelser, *Personality and Social Systems* (New York: John Wiley and Sons, 1967), 80–87.

من دور رئيسي في تحريك سلوك الفرد والجماعة في القديم والحديث، فإن مختصي العلوم الاجتماعية عموما قد استنكفوا عن فهم جذورها ومدلولاتها العميقة في التأثير على السلوك الإنساني. فخيّل اليهم أنها عبارة عن أشياء ميتافيزيقية يختص بدراستها الفلاسفة لا العلماء! وهذا مثال آخر، من بين العديد من الأمثلة يعكس القطيعة الإبستيمولوجية التي يشكو منها العالم الوضعي (positivist) المعاصر في إحداث طلاق لا رجعة فيه بين عالم المحسوس والعالم الماورائي مهما كانت طبيعة هذا الأخير.[٢٤] إن تمتع الإنسان دون سواه بالحرية والقدرة على الاختيار... ميزة تربط الكائن البشري بعالم الميتافيزيقيا. فالإله في معظم الديانات والعقائد يختص بتلك الخصال. فالإنسان هو الوحيد الذي يشترك بصورة نسبية مع الإله في تلك الخصال. فالنص القرآني يشير بالبنان إلى الرباط الماروائي الذي هو مصدر الحرية والإرادة والمقدرة على الاختيار... عند الإنسان. فكل ذلك يرجع إلى (... فإذا سويته ونفخت فيه من روحي...).[٢٥] فاجتمعت بذلك الظروف في نظر القرآن (بإعطاء الإنسان نصيبا من الحرية والإرادة) عند هذا الكائن العاقل لكي يكون المرشح الوحيد للخلافة بواسطة رصيد الرموز الثقافية على الخصوص، (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا).[٢٦]

وهكذا فلا عالم الحيوانات ولا عالم الآلات والأجهزة ذات الذكاء الاصطناعي يتمتع بكم وكيف طبيعة عالم الرموز الثقافية التي يملكها الإنسان. ومن ثم فضرب من الخيال التحدث عن معاني الحرية والمساواة والعدل... بنفس المستوى الذي طرحت به من طرف الجنس البشري على مر العصور. فالعامل الحاسم هنا بين عالم الإنسان وعالمي الدواب والآلات هو عالم الرموز الثقافية . ومن هذه الأخيرة تأتي شرعية حتمية ربط كينونة الإنسان بالعالم الميتافيزيقي. إذ بدون عالم الرموز الثقافية ودلالاته يظل تشخيصنا للإنسان وعلاقاته بما حوله هنا على الأرض وبما فوق السماء تشخيصا منقوصا على المستوى العلمي والعملي.

ولعل من الأمثلة المشخصة للمسات الميتافيزيقية لعالم القيم كرموز ثقافية هو ما جرى من أحداث للأنظمة السياسية والاجتماعية في أوروبا الشرقية. فما شهده النصف الثاني لعام ١٩٨٩ في المجتمعات الاشتراكية لأوروبا الشرقية من تغييرات في الأنظمة مؤشر واضح على مدى أهمية عمق طبيعة الرموز الثقافية عند الإنسان. فالمناداة بديمقراطية الحكم بين الفئات المختلفة لهذه الشعوب كانت تعني إنهاء حالة الحصار والكبت للحرية كرمز وقيمة ثقافيين متجذرين في التركيبة البشرية. فممارسة تلك الأنظمة التسلطية والدكتاتورية تتناقض مع مبدأ أن الإنسان كائن ثقافي بالطبع، أي أنه كائن لا يقبل أن تسحق

---

٢٤ D. C. Philips, *Philosophy, Science and Social Inquiry* (New York: Pergamon Press, 1985).

٢٥ سورة الحجر، 29/15.

٢٦ سورة الأحزاب، 72/33.

مهاراته وإمكاناته الرموزية الثقافية طال الزمن أو قصر. فحرية الكلمة والفكرة تتمتع بلمسات قدسية عند الإنسان. إن الرموز الثقافية، كما رأينا، هي مصدر التنوع والاختلاف بين الأفراد والجماعات البشرية. فقيام الأنظمة السياسية الاشتراكية المعاصرة بمنع حرية الإضراب في المعمل والسفر إلى خارج الوطن وتكوين الأحزاب وحرية الكلمة النافذة والفكر المعارض والمحتج... كلها ممارسات عملية تتعارض مع المؤهلات الرموزية الثقافية التي يتميز بها الإنسان عن عوالم الدواب والحيوانات والآلات ذات الذكاء الاصطناعي. فإقصاء الإنسان عن ممارسات حريته تؤول به في النهاية إلى تشابه كبير مع عالمي الكائنات الحية غير العاقلة والآلات ذات الذكاء الاصطناعي. وهنا يتضح بالتحديد، في رأينا، الجانب الأيديولوجي للمقولة المادية التاريخية التي تتبناها النظم الشيوعية والاشتراكية في فهمها للإنسان.[٢٧] فهذه النظم تعتقد أن الإنسان هو في المقام الأول كائن مادي اقتصادي بالطبع، وأن ما عدا ذلك من الطبيعة البشرية فهو إما ثانوي من حيث الأهمية أو هو باطل من الأساس، وهذا التصور المادي للكائن الإنساني أدى إلى تهميش أو الإلغاء الكامل لدور عالم الرموز الثقافية في التأثير في تشكيل السلوك البشري عند المفكرين الماركسيين الماديين المتشددين على الخصوص. وهي رؤية تقلب الأمور رأسا على عقب بالنسبة لمقولتنا الرئيسية في هذه الدراسة.

إن الكائن البشري عندنا هو كائن رموزي ثقافي بالطبع، أي أن دور ما سميناه بعالم الرموز الثقافية من حيث فهم الإنسان والمؤثرات على سلوكه دور رئيسي يتمتع بثقل لا يكاد يضاهيه في نهاية الأمر أي عنصر آخر مؤثر على السلوك البشري. وهذا ما يفسر في رأينا منطق السلوكيات الفردية والأحداث الجماعية التي أثبتت قدراتها على تحدي المعطيات المادية القاهرة. فإلقاء العديد من قادة العالم الثالث في السجون في العصر الحديث لم يمنعهم من الكفاح والصمود أمام القوى المادية العاتية والضخمة للمستعمر. وليس هناك من تفسير ذي مصداقية لانتصارهم في النهاية على المحتل أفضل من عامل تدرعهم بالسلاح المعنوي أو بسلاح عالم الرموز الثقافية وفقا لاصطلاحنا في هذا البحث. وما الانتفاضات الشعبية ضد الطغاة في القديم والحديث إلا تصديق لمدى أهمية الذخيرة التي يمكن أن يمد بها عالم الرموز الثقافية الجنس البشري بحيث تصبح طاقات هذا الأخير تحديا لأضخم قوة عسكرية يمكن أن يملكها الطاغية أو المستعمر . فقوة الرموز الثقافية قوة هائلة لا يكاد يقف أمام جبروتها أي شيء مهما كانت طبيعته القاهرة. فعنفوان هذه الطاقة التي يستلهمها الإنسان من عالم الرموز الثقافية تستمد قوتها من عالم السماء لا من عالم المحسوسات. ومن هنا يأتي المدلول الميتافيزيقي لقيم الحرية والعدالة والمساواة... كرموز ثقافية قادرة على شحن الأفراد والجماعات بطاقات هادرة جبارة تشبه إلى حد ما القوى الماورائية الضاربة التي لا يستطيع اعتراض سبيلها معترض. وهذا ما يوحي به بيت الشاعر العربي التونسي المعروف أبي القاسم الشابي:

---

٢٧ E. Balibar, *Cinq Etudes du Matérialisme Historique* (Paris: Maspéro, 1979).

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

فمصدر إرادة الشعب كما بينا هو عالم الرموز الثقافية. فالناس عندما يجمعون أمرهم على الدفاع عن الحرية وعن المساواة وعن العدل وعن الاستقلال واحترام الذات... يصبح فعلهم كرد فعل القدر الذي لا مرد له. وهذا ما يفسر لجوء الناس إلى الحديث عن المعجزات في بعض الأحداث الفردية أو الجماعية التي تدخل سجل تاريخ الأفراد والمجتمعات رغم عدم توفر المعطيات المادية لذلك. فتسرع الأحداث في المجتمع الروماني في نهاية عام ١٩٨٩ يعتبر أمرا مذهلا. فنظام الرئيس السابق نيكولاي تشاوسيسكو كان نظاما ديكتاتوريا لمدة ربع قرن. فقد أحكم سلطته على الجيش وعلى شرطة الأمن (سيكوريتات) وعلى الحزب الشيوعي الحاكم... لكن وما أن اشتعل فتيل الثورة الشعبية في مدينة شيمشوارا حتى امتد هذا الفتيل بسرعة إلى العاصمة بوخارست. وحاول تشاوسيسكو إطفاء اللهيب بخطاب ألقاه بالساحة الكبرى بالعاصمة بوخاريست في ٢٢ ديسمبر، ولكن انتشار الجيش والشرطة السرية لإيقاف الثورة الشعبية الصاخبة بالقيام بالمجازر وبعمليات التعذيب فشل في إخماد الثورة. فعمد الجيش إلى التحالف مع الشعب الغاضب الذي تحركه قيم الحرية والعدالة والمساواة وكسب الشعور والممارسة لاحترام ذات كل روماني... وكانت نهاية تشاوسيسكو وزوجته الإعدام يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٨٩. وهكذا انتهى عهد كامل بتلك السرعة التي لا تكاد تصدق. فقوة الشعب المسلحة بذخيرة عالم الرموز الثقافية (الحرّية والعدل والمساواة...) أصبحت قوة ماردة جبارة تفوق بكثير القوة المادية التي تسلح بها تشاوسيسكو وشرطة أمنه وجيشه. أصبحت تلك القوة شبه إلهية لا تبقي ولا تذر.

يتضح مما سبق أن الكائنات البشرية تتميز عن غيرها من الكائنات الحية الأخرى والأجهزة ذات الذكاء الاصطناعي بما سميناه بعالم الرموز الثقافية . كما يتضح أن هذه الأخيرة تتمتع بلمسات ماورائية بالمعنى المتعدد الدلالات الذي شرحناه. ومن ثم فاللغة والفكر والعقائد الدينية والمنظومة المعرفية والقيم والمعايير الثقافية... يمكن اعتبارها ما سميناه بالروح الثقافية الرموزية للإنسان.[٢٨] وقد اخترنا مفردة الروح في مفهومنا الاصطلاحي هذا عن قصد. وذلك لنشير بكل وضوح إلى اعتبار أن عالم الرموز الثقافية هو ذلك الجزء من كينونة الإنسان الأكثر مركزية وعمقا في تكوين ذاتية الأفراد والجماعات. فالرصيد الهائل للمهارات الثقافية الرموزية التي يملكها الجنس البشري يجب، في نظرنا، أن تكون المصدر الرئيسي الذي ينبغي أن يرجع إليه علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة... في أي محاولة طموحة لفهم وتفسير سلوكيات الأفراد والمجموعات البشرية. وبعبارة أخرى، فالروح الثقافية الرموزية بلمساتها الميتافيزيقية تصبح أداة بحث متميزة في دراسة السلوكيات الفردية والجماعية في دنيا الإنسان وبالتحديد

٢٨ M. Dhaouadi, "The Cultural Symbol Soul: An Islamically Inspired Research Concept for the Behavioral and Social Sciences", *The American Journal of Islamic Social Sciences*, 9 (1992): 153.

في القضايا التي تهتم بطرحها العلوم السلوكية والاجتماعية المعاصرة. فإعطاء الأولوية، في دراسة الفرد ومجتمعه وتفاعلهما، للرموز الثقافية في ذلك يرجع إلى تلك العلوم إنسانيتها بعد أن فقدت الكثير منها عندما درست الإنسان كحيوان أو ككائن لا يتأثر سلوكه إلا بالحقائق والبنى الاجتماعية القاهرة. وبذلك يساهم منظورنا الرموزي الثقافي في إبراز مدى أهمية الأطر الفكرية (pardigms) للعلوم الاجتماعية التي بدأت تنظر إلى الظواهر الاجتماعية على أنها نتيجة لعوامل معقدة لا بسيطة، فإضافة دور الرموز الثقافية الحاسم في تشكيل سلوكيات الأفراد والجماعات.. إلى عوامل البنى الاجتماعية والاقتصادية... التي اقتصرت بعض المدارس الفكرية المعاصرة على استعمالها في تفسير الظواهر الاجتماعية ، تتفق مع من ينادون اليوم في العلوم الاجتماعية بتبني التعقيد (complexity) لا التبسيط في محاولة فهم وتفسير سلوكيات الأفراد والظواهر الاجتماعية.[٢٩]

٣— فقدان الرموز الثقافية للوزن والحجم

يمكن القول بأن سهولة نقل ونشر الرموز الثقافية على بساط الأرض تعود أساسا إلى فقدانها بعض المعطيات المادية المحسوسة. فالوزن والحجم الماديان للأشياء المادية يمثلان المعطيات الأساسية المحسوسة لعالم المادة ويتطلبان في نهاية الأمر جهدا بشريا في عملية نقل الأشياء المادية من مكان إلى مكان آخر.

أما بالنسبة للرموز الثقافية ذاتها فإنها بطبيعتها فاقدة للوزن والحجم الماديين. إن حركتها وانتشارها السريعين من مكان إلى آخر يجوز تفسيرهما بمعطيات فقدان الحجم والوزن. ومن ثمّ يكون نقل ونشر الرموز الثقافية أسهل وأسرع. وعلى سبيل المثال، يصبح للغة حجم ووزن عند طباعتها على الورق الذي له وزن وحجم. فحمل عدد هائل من الموسوعات والكتب والوثائق والمجلات والجرائد... عبر فضاء معين سوف يحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير إذا كانت المسافة شاسعة ووسائل النقل بدائية. لقد سهلت وسائل النقل الحديثة نقل وحمل أثقل الأشياء من مكان إلى آخر، ولكن يبقى عاملا الوزن والحجم عاملين حاسمين بالنسبة للحركة السريعة للأشياء وللجهد الجسيم الذي يحتاج إليه نقلها. وهذه المسألة تصبح واضحة المعالم عند التخلص من عاملي الوزن والحجم في عملية بث الرموز الثقافية، أي عندما تسترجع الرموز الثقافية حالتها الطبيعية الأولى الفاقدة للحجم والوزن. فاختراع آلة الفاكس قد ألغى معطيات الوزن والحجم. ومن ثم فبث نص الوثائق المكتوبة في لمح البصر وبدون جهد يذكر إلى أقصى مكان في العالم أصبح أمرا في غاية السهولة اليوم وذلك عن طريق آلة الفاكس. وينطبق ذلك أيضا على المراسلات وبعث النصوص المكتوبة عن طريق الإنترنت. إن فقدان الرموز الثقافية للحجم والوزن يجعلها لا تتبع القواعد والمنطق الذي يتحكم في عالم الأشياء الطبيعية المادية التي لها وزن وحجم، ويضعها بدلا من ذلك في فلك الكائنات الروحية التي ليس لها وزن ولا حجم. ويبدو أن حالة فقدان الحجم والوزن لا

٢٩ E. Morin, *Introduction à la pensée complexe* (Paris: E.S.F., 1990).

تترك مجالا للعراقيل التي يمكن أن تقف أمام حرية الحركة الحينية للرموز الثقافية. فالتواصل الصامت عبر التخاطر (telepathy) والتخاطب الشفوي بالهاتف والتواصل الكتابي بالفاكس والإنترنت بين بني البشر كلها أمثلة للتواصل الحيني. ويحدث هذا بكل سهولة حتى عندما تفصل الصحاري والجبال والبحار والمحيطات بين الأطراف المعنية. ويجمع هذه الأنواع الأربعة من الاتصالات عامل مشترك يتمثل في فقدانها الكامل لعراقيل الحجم والوزن.

إن تحليلنا لهذه المظاهر الثلاثة للرموز الثقافية يشير أن لهذه الأخيرة ملامح تجعلها تشبه إلى حد كبير الكائنات الميتافيزيقية. ويتفق هذا كثيرا مع رؤية القرآن لطبيعة الرموز الثقافية البشرية. وباختصار، فالرموز الثقافية في المنظور القرآني هي جزء من النفخة الروحية الإلهية الخاصة التي نفخها الله في آدم. إن مزج الطين بالنفخة الروحية الإلهية في خلق آدم جعل آدم مزدوج الطبيعة: مادة وروح. إن البيان الوارد أعلاه للمظاهر الثلاثة للرموز الثقافية يشير بقوة إلى أن الرموز الثقافية حبلى بالعنصر الميتافيزيقي المتعالي في التركيبة الازدواجية لطبيعة الإنسان.

تاسع عشر: صورة الإنسان في القرآن

يتجلى مما تقدم — من طرح ونقاش لمنظومة الرموز الثقافية — أمران رئيسيان:

١— هناك علاقة ترابط قوية بين طول أمد حياة الإنسان والرموز الثقافية.

٢— يستوحى من القرآن الكريم أن الرموز الثقافية ذات جذور/أصول إلهية ماروائية. ومن ثم فلها تجليات ميتافيزيقية في ثنايا السلوك البشري. ويتمثل السؤال الرئيسي الآن في التالي: هل من الممكن الاستناد على هاتين الملاحظتين لتفسير تميز الجنس البشري بالتمتع بأمد حياة طويل؟

للمنظور الإسلامي رؤيته الخاصة بالنسبة لخلق الإنسان وصورته أيضا بين العدد الكبير من الأجناس الحية الأخرى. فمن جهة، يمدنا القرآن برؤيته لخلق آدم في العديد من الآيات. فحدث خلق آدم كان حصيلة للتفاعل بين الطين (المادة) والعنصر الميتافيزيقي (نفخة الروح الإلهية). وبعبارة أخرى، كان خلق آدم نتيجة للتواصل بين المادة (الطين) ونفخة الروح الإلهية. ومن جهة ثانية، يتحدث النص القرآن بما فيه الكفاية عن آثار حدث خلق آدم، أي ما الذي حدث عندما تم الجمع بين الطين والنفخة الروحية الإلهية؟ وكإجابة على مثل هذا التساؤل يتحدث القرآن بفخر وامتداح عن آدم المخلوق الجديد. إذ أن الطين لم يعد مادة فقط، بل يوجد فيه الآن جزء، على الأقل، من الروح الإلهية. وبعبارة معاصرة، فالمخلوق الجديد لم يعد كائنا مخلوقا من عناصر كمية (طين /مادة) فقط، فبنفخ الروح الإلهية فيه أصبح آدم أيضا مخلوقا ذا مواصفات كيفية (نفخة الروح الإلهية)، ومن ناحية ثالثة، إن النص القرآني لا يشير بوضوح إلى القطبين المكونين للذات البشرية فحسب، بل هو يبدي في نفس الوقت تعاطفا كبيرا مع الجانب الروحي

(الكيفي) والمتمثل في نفخة الروح الإلهية. وكما ذكرنا من قبل، فإن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم جاء بعد، وليس قبل، وقوع النفخة الروحية الإلهية في المخلوق الجديد (آدم): (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). وبالتعبير القرآني. يتمثل أهم جانب من ازدواجية الذات البشرية في الجزء الذي يرجع مباشرة إلى الروح الإلهية. ويتفق هذا تماما مع الرؤية القرآنية. ففي النص القرآني، ينظر إلى الله على أنه منتهى الحكمة والمعرفة، وأنه أحسن الخالقين وهو الرحمان الرحيم... ومن ثم فنفخ قليل من روحه في ذات آدم الموجودة على شكل طين يؤدي حتما إلى تغيير آدم في شكله الطيني تغييرا جذريا من حيث النوعية. فهذا التحول العظيم في طبيعة آدم بفضل النفخة الروحية الإلهية لم يجعل من آدم سيد المخلوقات فحسب بل جعل منه أيضا خليفة الله في الأرض. فهو سيد أجناس الكائنات الحية الأخرى لا سبب عوامل مادية مثل حجمه وطول قامته إلخ... ولكن بسبب العوامل الكيفية التي يتميز بها الإنسان والتي تمثل الرموز الثقافية مصدرها الأساسي كما تؤكد مقولة هذه الدراسة على ذلك.

عشرون: علاقة الذات البشرية المزدوجة بطول أمد حياة الإنسان

كيف تساعد صورة الإنسان المزدوجة التي يتحدث عنها القرآن على تفسير ظاهرة طول أمد الجنس البشري؟ لقد وقع التأكيد في صفحات هذا البحث على أن أفراد الجنس البشري يعيشون عموما حياة أطول من حياة بقية أفراد أجناس الكائنات الأخرى، وذلك لأن الرموز الثقافية تنمو وتنضج بطريقة أكثر بطأ من نمو ونضج أعضاء الجسم. ومن ثم، فالبشر يحتاجون أن يعمروا طويلا لكي تستطيع الرموز الثقافية أن تبلغ أوج نموها ونضجها، فكيف تستطيع رؤية القرآن للطبيعة البشرية المزدوجة أن تفسر طول أمد حياة أفراد الجنس البشري؟

لكي نجيب على هذا السؤال الرئيسي نكتفي باستعمال مفهومنا للرموز الثقافية كما وقع شرحه في هذه الدراسة. فمن جهة، نستعمل المنظور القرآني الملح على المصدر الميتافيزيقي لظاهرة الرموز الثقافية وتفسير كيف تلعب الرموز الثقافية دورا حاسما في إطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري... إن هذا المنهج لا يتفق بطبيعته مع الرؤية الوضعية (positivist). وليس هناك من حرج عندنا في تبني مثل هذا المنظور. لقد كررنا الإشارة في هذا البحث إلى أن الرموز الثقافية هي بشدة حبلى بالدلالات الميتافزيقية. فلا يكاد مثل هذا الموقف يجد أي قبول بين الباحثين الوضعيين وبالتالي لا يعطون اهتماما لدراسة الجوانب الميتافيزيقية للرموز الثقافية. ونتيجة لذلك فنحن نريد دراسة العلاقة بين الرموز الثقافية وطول عمر الإنسان بعيدا عن المنطق الضيق للإمبريقية والوضعية. فكما أكدنا ذلك مرارا، نحن نعتبر الرموز الثقافية حبلى بالملامح الميتافيزيقية. والعالم الميتافيزيقي يختلف عن عالم الحواس الخمس، أي أنه عالم له قواعده وحركيته ومنطقه غير المادي الخاص به. إن الرؤية القرآنية الفلسفية الميتافيزيقية لا تتأثر بكوابح الامبريقية والوضعية اللتين ليستا صالحتين لدراسة الملامح الميتافيزيقية للرموز الثقافية.

فمناقشتنا لهذه الأخيرة في هذا البحث تتجاوز حدود العلم الوضعي. أي أن منظورنا ربما ينتمي إلى علم الاجتماع المتأمل في ذاته (sociologie reflexive) المشار اليه سابقا[٣٠]، أو ربما يندرج في ما يسمى اليوم بمنظور ما بعد الحداثة (postmodernism): تقتصر هنا على مناقشة أربعة أفكار/ فرضيات حول علاقة الترابط بين الرموز الثقافية وطول أمد حياة أفراد الجنس البشري.

١– يمكن القول بأن الرموز الثقافية تنمو وتنضج ببطء أكثر لأنها ذات طبيعة أكثر تعقيدا من طبيعة فيزيولوجيا أعضاء جسم الإنسان؟ وبعبارة المفكر كاسيرر (Cassirer) "لقد أعطي الإنسان هبة أخرى التي هو وحده الذي ينميها والتي ليس لها مثيل في عالم الطبيعة العضوية وهو لا يستطيع في الحين الوصول إلى فكرة الفضاء المجرد بل هو يقدر على تحقيق ذلك عن طريق عملية معقدة وصعبة من التفكير".[٣١] فالبشر يحتاجون، إذن ، إلى عمر أطول لكسب رهان نمو ونضج كاملين للرموز الثقافية. فبينما تبدو فرضية التعقيد مقبولة كعامل محسوس وموضوعي لتحليل العلاقة بين الرموز الثقافية وطول أمد حياة أفراد الجنس البشري إلا أنها، مع ذلك لا تضع حدا للعديد من الأسئلة التي يمكن إثارتها بهذا الصدد. فما نعني، على سبيل المثال، باتصاف الرموز الثقافية بالتعقيد؟ فما الذي يجعل الرموز الثقافية أكثر تعقيدا من فيزيولوجيا أعضاء الجسم؟ فهل يرجع تعقيد الرموز الثقافية إلى كونها حبلى بالعناصر الميتافيزيقية الإلهية؟ فالإجابة على هذه الأسئلة يصعب البحث عنها في إطار العلم التجريبي (الميداني) الوضعي. فهناك حاجة ماسة إلى منظور فكري يلقي الضوء على الظاهرة المدروسة ويحسن فهمنا لها. وكما رأينا، فإن الإمبريقية والوضعية لا تكادان تستطيعان تقديم أي عون في هذا المضمار. ومن ثم، ينبغي الترحيب بالأفكار التي تكون مرجعيتها الدين والفلسفة والميتافيزيقيا أو علم الاجتماع المتأمل في ذاته أو الإطار ما بعد الحداثي طالما تساعدنا على القرب من فهم طبيعة الرموز الثقافية ودورها الخاص على سلوك ومسيرة الجنس البشري كأفراد وجماعات وحضارات.

٢– يمكن دراسة علاقة الترابط بين الرموز الثقافية وطول عمر الإنسان عن طريق ما يسمى بعلم النفس الغيبي (parapsychology). أي كيف تؤثر الروح في المادة. تمثل الرؤية القرآنية لخلق لآدم مثلا لتفاعل الروح مع المادة. فآدم هو مزيج من الطين والنفخة الروحية الإلهية. وكما أشرنا، فقد غيرت النفخة الروحية الإلهية نوعية المخلوق الطيني الجديد. فبها اكتسب ملامح ميتافيزيقية، وبينا في هذا البحث أن الرموز الثقافية حبلى بالصفات الميتافيزيقية. ويمكن القول بهذا الصدد بأن الرموز الثقافية لا

---

٣٠ يتماشى هذا التوجه الجديد الذي يعبر عنه اليوم العديد من علماء الاجتماع الأمريكيين الذين بدأوا ينادون بأن علم الاجتماع كعلم لا ينبغي أن يبقى سجينا لمبادئ الوضعية (positivism) في القرن التاسع عشر. بل ينبغي عليه أيضا أن يستعمل علم الاجتماع المتأمل في نفسه (reflexive sociology) لفهم وتفسير الظواهر قيد الدرس. وبعبارة أخرى، فعلم الاجتماع كعلم ذي مقدرة ابتكارية ينبغي أن يعمل على كسب رهان طرق أخرى لتأسيس المعرفة العلمية. إذ لم يعد من المقبول الاعتقاد بأن هناك منهجا واحدا للمسيرة العلمية في العلوم الاجتماعية. بل إن علم الاجتماع للقرن الحادي والعشرين يجب أن يكون علما ذا توجه نحو قضايا التنوع والتعقيد في فهم الظواهر: Patricia Hill Collins and Michael Burawoy, "On Book Exibits and New Comlexities: Reflexions on Sociology as Science", *Contemporary Sociology*, 27/1 (1998): 11–19.

٣١ E. Cassirer, *An Essay on Man* (New York: Bantam Books, 1970), 48.

يقتصر تأثيرها على إطالة أمد حياة/خلود بني البشر رموزيا بل هي قادرة أيضا على إعطاء هذه الصفات إلى المادة نفسها. أي أن عمر الإنسان (كوحدة بيولوجية فيزيولوجية) يزداد طولا بفضل الرموز الثقافية. ومن ثم يتضح أن هناك تأثيرا حاسما للجانب الرموزي الثقافي (الروح بالتعبير القرآني) على إطالة أمد حياة أجسام أفراد الجنس البشري، وبالتحديد، فإن خلود/طول أمد حياة الرموز الثقافية وقع نقله بصورة محدودة إلى الجانب العضوي (الطين/المادة) للذات الإنسانية. إن رؤية علم النفس الغيبي حول طول عمر الإنسان لا تكاد تتناقض مع الرؤى الدينية والفلسفية والميتافيزيقية حول دور الرموز الثقافية في مسيرة الإنسان روحا وجسما.

٣– وكما رأينا من قبل، فإن الرموز الثقافية تمثل على الأقل ،جزءا هاما، من النفخة الروحية الإلهية التي تلقاها آدم. وتعتبر الرموز الثقافية جزءا مما سميناه بالجانب النوعي للذات الإنسانية المزدوجة. ومن وجهة النظر القرآنية فإن النفخة الروحية الإلهية، بما في ذلك الرموز الثقافية، تعتبر أحسن جزء في تكوين الذات البشرية المزدوجة. فبدون النفخة الروحية الإلهية ما كان لآدم أن يكون هو الوحيد خليفة الله في الأرض. وإن لذلك انعكاسات خطيرة. فكما أكدنا مرارا في هذه الدراسة بأن النمو والنضج الكاملين للرموز الثقافية يتطلبان زمنا طويلا. وبعبارة أخرى، فبنو البشر عليهم أن يدفعوا ثمنا مربحا مقابل استعمالهم للرموز الثقافية. ويتمثل هذا الثمن في عدد السنين والعقود التي يحتاج إليها بالضرورة النمو والنضج الكاملان لكل من أعضاء الجسم والرموز الثقافية. ولهذا الثمن جانبه الإيجابي، فقد سمح لبني البشر بالتمتع بحياة أطول من معظم بقية الكائنات الحية الأخرى تقريبا. ومما شك فيه أن للرموز الثقافية دورا مركزيا في إضفاء الجانب النوعي على خلقة الإنسان هناك . إذن، حاجة ماسة إلى زمن طويل بعدد من السنوات والعقود لدفع ثمن ذلك الجانب النوعي في خلقة الإنسان. وهذا من شأنه أن يحقق النمو والنضج الكاملين للذات البشرية على أرض الواقع. ومن هنا فلا ينبغي فقط تحليل ظاهرة طول عمر الإنسان من خلال رؤية الحتمية البيولوجية المورّثاتية (bio–genetic determinism)، بل هي ظاهرة قابلة للتحليل والفهم أيضا بواسطة منظور علم الاجتماع المتأمل في ذاته أو الرؤى الثقافية والدينية والفلسفية والميتافيزيقية وما بعد الحداثية كما حاولنا كشف الحجاب عن ذلك في صفحات هذا البحث.

٤– فمن وجهة النظر القرآنية يمكن القول بأن طول أمد حياة أفراد الجنس البشري يرجع إلى النفخة الروحية الإلهية. وهناك مؤشرات على ذلك. وكما بينا في الصفحات السابقة، فهناك، من ناحية، علاقة ارتباط قوية بين طول عمر الإنسان والرموز الثقافية. تتطلب الرموز الثقافية مدة طويلة بعدد السنين والعقود لكي يكتمل نموها ونضجها. وهذا ما سمح لأفراد الجنس البشري بالتمتع بأمد حياة أطول مقارنة بعمر أفراد الأجناس الحية الأخرى. وبعبارة أخرى، فإن تأثير الرموز الثقافية على إطالة عمر الإنسان هو تأثير محدود. ومن ناحية أخرى، فالنص القرآني يبين بوضوح أن النفخة الروحية الإلهية التي تلقاها آدم جعلت الإنسان في نهاية الأمر كائنا يتصف بالخلود. وبالطبع فالإنسان ليس بالكائن الخالد جسديا فهو يعيش

فقط حياة أطول عموما في هذه الدنيا، ولكنه كائن خالد بعد البعث، فالقرآن يؤكد على خلود الإنسان بعد البعث في الجنة أو في النار. فليس هناك ذكر في النص القرآني لا لبعث الكائنات الحية الأخرى ولا إلى خلودها. فيبدو أن هذا الفرق بين طول عمر أفراد الجنس البشري وأفراد الأجناس الأخرى في هذه الدنيا وخلود الإنسان وعدم خلود الكائنات الأخرى بعد الموت يرجع إلى النفخة الروحية الإلهية التي لم يتلقها إلا الإنسان حسب النص القرآني. فالنفخة الروحية الإلهية أهلت الإنسان ليكون خليفة الله في الأرض ومسؤولا على أعماله أمام الله يوم القيامة. وكما وقع التأكيد في ثنايا هذه الدراسة بأن الرموز الثقافية هي عنصر هام من النفخة الإلهية، فالرموز الثقافية تمثل عوامل حاسمة في إطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري في هذه الدنيا. كما أنه بسبب الرموز الثقافية يحاسب الناس على أعمالهم فيخلدون في الجنة أو في النار أو عقابا جزاء. وبعبارة أخرى، يمكن النظر إلى الرموز الثقافية على أنها، أولا، عامل رئيسي في إطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري، وأنها ، ثانيا، عامل أساسي في تأهيل الإنسان إلى الخلود بعد البعث. وهكذا يبدو وبقوة أن علاقة الترابط بين الرموز الثقافية وطول عمر الإنسان هي علاقة قوية بالمعنى النسبي (المحدود في هذه الدنيا) والمعنى المطلق (الخلود) لطول أمد الحياة بعد يوم البعث، حسب الرؤية القرآنية.

واحد وعشرون: علم اجتماع ميتافيزيقيا الرموز الثقافية

يتجلى من طرح ظاهرة أمد حياة أفراد الجنس البشري وتحليلها ومناقشتها في صفحات هذا البحث أننا بصدد التأسيس لما يمكن أن نسميه بعلم اجتماع ميتافيزيقيا الرموز الثقافية. وقد استنتجنا ميتافيزيقيا الرموز الثقافية من التحليل المنهجي لطبيعة الرموز الثقافية نفسها، من جهة، ومن الاستعانة بالإبستيمولوجيا الإسلامية للرموز الثقافية، من جهة ثانية. ومن ثم كانت رؤيتنا في هذه الدراسة تشكل إطارا نظريا (theoretical framework) ذا أسس ثقافية وإبستيمولوجية إسلامية. وهو بذلك منظور يختلف كل الاختلاف عن المنظور الوضعي (positivist) على ثلاثة مستويات على الأقل: موضوع الدراسة، إبستيمولوجيتها ومنهجيتها. وكما أشرنا، فالعلوم الاجتماعية الوضعية تستنفر من دراسة الملامح الميتافيزيقية للرموز الثقافية أو غيرها من الظواهر المشابهة. وبالتالي فدراسة ميتافيزيقيا الرموز الثقافية هو موضوع ترفض العلوم الاجتماعية الوضعية التعامل معه إبستيمولوجيا ومنهجيا. ورغم اعتراض العلم الوضعي عن الاهتمام بدراسة ميتافيزيقيا الرموز الثقافية وعلاقة ذلك بظاهرة طول أمد حياة أفراد الجنس البشري، فإن هناك عدة عوامل شجعتنا على المضي قدما في هذا البحث. أولا، نعتبر دراسة الجوانب الأخرى (الميتافيزيقية) للرموز الثقافية أمر يمس من قريب صلب ما يعرف بالبحث العلمي الأساسي (scientific basic research) وهو بذلك البحث الذي يحاول أو يكشف عن جوهر الأشياء فيعمق معرفتنا ويسمح لنا بالفهم الوافي لكليات الظاهرة وجزئياتها الأمر الذي يساعدنا على إرساء أطر فكرية (paradigms) ذات مصداقية.

إن الاعتناء بدراسة كنه الرموز الثقافية يندرج في صنف البحوث الأساسية العلمية. فالرموز الثقافية هي ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات. وبعبارة أخرى، إنها تمثل جوهر الإنسان . فالكشف عن طبيعتها وخفاياها هو، إذن، أمر ذو أولوية، ما في ذلك شك بالنسبة للبحث العلمي الأساسي. إذ أن عمق فهمنا لها يقربنا كثيرا من كسب رهان فهم وتفسير سلوك الفرد وحركية المجتمع البشري. ولذلك فهي جديرة بالبحث المتعمق الذي يحاول إماطة اللثام عن أعمق جوانبها. ثانيا، إن اختيارنا للمنظور الثقافي الإسلامي لدراسة الملامح الميتافيزيقية لمنظومة الرموز الثقافية يرجع، من ناحية، إلى عدم اهتمام وعجز المنظور الوضعي عن دراسة موضوع هذا البحث، كما بينا ذلك في صفحات هذا العمل ويعود ، من ناحية ثانية، الى تأكيدنا منذ بداية هذه الدراسة أن مفهوم الرموز الثقافية مستوحى من عدة تخصصات معرفية ومن ثم فهو صالح للاستعمال الواسع (interdisciplinary) فيها. إذ أن المهم في نظرنا، في تقدم مسيرة العلوم ليس الإصرار والتشبث برؤية ما ومنهجية ما وإنما الأهم هو استعمال الرؤية والمنهجية المناسبتين لفهم وتفسير الظاهرة قيد الدرس. ومن ثم فهناك مشروعية قوية لتبني المنظور الثقافي الإسلامي كبديل عن المنظور الوضعي التقليدي الذي أسّست مبادئه في القرن التاسع عشر ولم يعد في نظر العديد من علماء الاجتماع اليوم المنظور الوحيد الذي يجب التقيد برؤية ومنهجيته وإبستيمولوجيته. ويرى هؤلاء العلماء أن الوقت قد حان لإحداث تغيير في صلب علم الاجتماع المتأثر في العمق بالإبستيمولوجيا الوضعية. فيدعون إلى تغيير ثلاثة أمور أساسية في صلب الاجتماع كعلم:

(١) يجب إقناع علماء الاجتماع بأنه ليس هناك منهجية علمية واحدة للقيام بالبحوث في العلوم الاجتماعية. أي هناك دعوة اليوم إلى مشروعية التنوع في المناهج العلمية التي يمكن أن يستعملها علماء الاجتماع في دراسة الظواهر التي يهتمون بها.[٣٢]

(٢) يعتقد هذا التوجه الجديد بين صفوف علماء الاجتماع بأن علم الاجتماع قادر على تبني واستعمال مجموعة الأطر النظرية دون أن تتضرر من ذلك الرؤية المركزية لهذا العلم.[٣٣] فمنظورنا الثقافي الإسلامي في هذه الدراسة يتماشى مع مبدأ الدعوة إلى تعددية الأطر النظرية داخل صلب علم الاجتماع. وإن منظورنا يبقى وفيا في موضوع بحثه إلى صميم علم الاجتماع. فهذه الدراسة تركز تحليلها على منظومة الرموز الثقافية/الثقافة التي كانت دائما ذات أولوية في دراسات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على الخصوص. ومما يزيد في ولاء هذه الدراسة إلى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا هي محاولتها القيام بإضافة علمية جديدة في فهم منظومة الرموز الثقافية وذلك بتركيزها على دراسة الجانب الآخر للرموز الثقافية والمتمثل في ميتافيزيقيا الرموز الثقافية. إن الكشف عن التجليات الميتافيزيقية في منظومة الرموز

---

٣٢ Barbara Risman and Donald Tomaskovic-Devey, "A Window on The Discipline", *Contemporary Sociology*, 27/1 (1998): 1.

٣٣ Patricia Hill Collins and Michael Burawoy, "On Book Exibits and New Comlexities: Reflexions on Sociology as Science", 10.

الثقافية يبرز ما كان مفقودا في صلب الرصيد المعرفي السوسيولوجي والأنثروبولوجي الحديث. وبذلك يكتمل فهمنا لأهم ما يميز أفراد الجنس البشري عن غيرهم من أفراد الأجناس الأخرى. ينتمي مثل هذا البحث الاستكشافي، كما أشرنا سابقا، إلى البحث العلمي الأساسي الذي تشكل استكشافاته منطلقا متينا للفهم المتعمق والتنظير العلمي حول الظواهر ذات العلاقة بتلك الاستكشافات. فاهتماماتنا بدراسة الملامح الميتافيزيقية في الرموز الثقافية أفادتنا كثيرا في هذه الدراسة، لا على فهم وتفسير ظاهرة تميز أفراد الجنس البشري بطول أمد الحياة فحسب بل أعانتنا في المقام الأول على طرح هذا التساؤل: هل من علاقة بين الملامح الميتافيزيقية للرموز الثقافية وبين تمتع أفراد الجنس البشري بأمد حياة أطول؟ إن هذا التساؤل ذا الإبستيمولوجيا الميتافيزيقية كان هو الأساس الدافع لهذه المغامرة البحثية هنا وراء تفسير غير بيولوجي وموّرثاتي (bio–genetic) لطول أمد حياة أفراد الجنس البشري. وفي هذا تعزيز لدور العلوم الاجتماعية في تفسير ظواهر كان تفسيرها مقصورا أساسا على ما يسمى بالعلوم الصحيحة. وهذا شاهد على رحابة صدر مفهوم الرموز الثقافية للإستعمال الواسع في العديد من التخصصات المعرفية.

(٣) يعتقد هذا الجيل الجديد من علماء الاجتماع بأن علم الاجتماع هو علم يتصف بإبستيمولوجيا بالخلق والابتكار الأمر الذي يجعله متأهلا ليكون طلائعيا في طرح طرق جديدة للقيام بالعمل العلمي.[٣٤] إذ المهم بهذا الصدد ليس تبني منهجية معينة في البحث العلمي وإنما الأهم يتمثل في استعمال منهجية قادرة فعلا على بناء صرح متين للعلوم. إن المنهجية الكفوءة في تشييد علم اجتماع ذي مصداقية علمية يجب أن تكون أولا قادرة على كسب رهان التعرف على العوامل الاجتماعية والثقافية التي تقف وراء ميلاد الظاهرة قيد الدرس. إذ أن تفسير الظواهر من خلال المؤثرات الاجتماعية والثقافية يندرج في صلب المنظور السوسيولوجي الذي يعتمد أساسا في تفسيراته للظواهر على مفهومي البنية الاجتماعية (social structure) والثقافة (culture).[٣٥] وهذا ما يميز المنظور السوسيولوجي عن المنظور النفسي والبيولوجي في تفسيرهما للسلوك البشري. فالمنظور النفسي يفسر السلوكيات الفردية والجماعية انطلاقا من عوامل نفسية في شخصيات الأفراد. أما المنظور البيولوجي فيرجع بعض السلوكيات البشرية إلى مؤثرات بيولوجية وموّرثاتية (genetic) في تركيبة شخصيات الأفراد. إن ما يسمى اليوم بعلم الاجتماع البيولوجي (sociobiology) يفسر السلوكات الاجتماعية لبني البشر استنادا على عوامل بيولوجية. أي أن اختيارنا لأي منهجية بحث يجب أن يبقى هدفه النهائي هو الكشف عن السبب (أو الأسباب) التي عملت وتعمل على بلورة وميلاد الظاهرة. وبعبارة أخرى، فالمنهجية التي يستعملها عالم الاجتماع ينبغي أن تكون متبنية لمبدأ السببية في تفسير الظواهر الاجتماعية، وهو مبدأ ثابت لكل العلوم الحديثة. ولكن البحث عن العوامل المسببة للظواهر الاجتماعية لا ينبغي أن يقتصر على تلك العوامل الكمية التي

---

٣٤ Barbara Risman and Donald Tomaskovic-Devey, "A Window on The Discipline", 1.

٣٥ N. Smelser, *Personality and Social Systems*, 86-87.

شدد عليها العلم الوضعي (positivism) منذ القرن التاسع عشر،[٣٦] بل يجب أن يطمح البحث عن علل الظواهر الاجتماعية إلى التعرف على الأسباب الكيفية التي لم يهتم العلم الوضعي باستعمالها. وهذا قصور واضح المعالم في إبستيمولوجيا ومنهجية العلوم الاجتماعية الوضعية. إذ كيف يمكن أن يكون لمفاهيم ونظريات واستنتاجات هذه العلوم من مصداقية إذا هي تركت جانبا عوامل رئيسية كيفية يتأثر بها بقوة السلوك البشري؟

إن استعمالنا للمنظور الثقافي الإسلامي ذي الإبستيمولوجيا الميتافيزيقية للرموز الثقافية هو ضرب جديد من الأطر الفكرية (paradigms) للقيام بالبحث العلمي في ميدان العلوم الاجتماعية. فمجهودنا في هذه الدراسة يحدّد طريقة جديدة في بلورة العمل العلمي. وهو ما يضفي على علم الاجتماع لمسة الابتكار التي تسمح له كعلم أن يكون طلائعيا في قدرته على تحديد طرق جديدة للقيام بالبحث العلمي.[٣٧]

ثاني وعشرون: انسجام منظورنا مع علم الاجتماع المتأمل في الذات

مما لاشك فيه أنّ منظورنا الإسلامي الثقافي لمفهوم الرموز الثقافية المطروح هنا هو منظور يجمع بين عدة رؤى معرفية تتمثل أساسا في العلوم الاجتماعية والإنسانية وفي طليعتها الفلسفة والدين. وهي صياغة يرفضها العلم الوضعي التقليدي ولكن يقبلها ويرحب بها التوجه الجديد في صلب علم الاجتماع.[٣٨] ولعل علم الاجتماع الذي يدعو اليه بورديو (Pierre Bourdieu) يدعم كثيرا رؤية منظورنا في هذا البحث. فمشروع بيار بورديو الفكري المعرفي يتمثل في ما أطلق عليه بعلم الاجتماع المتأمل في الذات (sociologie reflexive). فهذا الأخير لا يحترم كثيرا الحدود التي وقعت إقامتها بين التخصصات المعرفية. ومن ثم فعلم الاجتماع المتأمل في الذات يدعو إلى ابتكار واستنباط طرق جديدة تفي بفهم وتفسير الظاهرة الاجتماعية بكثير من المصداقية. فهو يمثل، إذن، تحديا للتقسيمات الحالية وأنماط التفكير السائدة في العلوم الاجتماعية المعاصرة.

كما أن بورديو يدعو بقوة وحماس إلى تبني واستعمال مناهج متعددة في دراسة الظواهر الاجتماعية والبحوث التي يقوم بها علماء الاجتماع. ويرى بورديو أن علم الاجتماع كرؤية معرفية، يجب أن يتصف بالشمولية (La sociologie doit être une science totale). وبتعبير مارسال موس، يجب على علم الاجتماع أن يمدنا بوقائع اجتماعية شاملة (faits sociaux totaux) قادرة على إعادة الوحدة الأساسية

٣٦ عالم النفس الأمريكي B.F. Skinner من المدرسة السلوكية وعالم الاجتماع الفرنسي Emile Durkheim رائد الحتمية الاجتماعية مثالان على ذلك.

٣٧ Barbara Risman and Donald Tomaskovic-Devey, "A Window on The Discipline", 1.

٣٨ Patricia Hill Collins and Michael Burawoy, "On Book Exibits and New Comlexities: Reflexions on Sociology as Science", 10-11.

للبحث العلمي الذي طالما مزقته الحدود المتواجدة بين التخصصات المعرفية والميادين الإمبيريقية أثناء الملاحظة والتحليل. وعلى هذا الأساس عارض بورديو بشدة الفصل بين الجانب المنهجي الميداني والجانب النظري في العمل السوسيولوجي. ويعرّف بورديو المنهجية السلبية (Le méthodologisme) بأنها ذلك التوجه لدى الباحث الذي يفضل الجهد الفكري الذي يتطلبه استنباط المناهج عن استعمالها المفيد في العمل العلمي ذاته، الأمر الذي يجعل إنشاء المنهجية يقتصر على مجرد المنهجية فقط. يعتقد بورديو أن التفنن في التقنيات البحثية طالما يؤدي إلى فقر في الجانب النظري السوسيولوجي حول الظاهرة قيد الدرس. فالعمل السوسيولوجي الحق هو، إذن ذلك الذي يحافظ دائما على الرباط الوثيق بين المنهج والفكر.[٣٩]

ويخلص بورديو من طرحه لمفهوم علم الاجتماع المتأمل في الذات إلى أن هذا الأخير ليس بالعدو للرؤية العلمية الحديثة ولكنه يقف ضد التصورات (conceptions) الوضعية للعلوم الاجتماعية وضد أيضا الفصل المطلق الذي تقوم به العلوم الاجتماعية الوضعية بين الجوانب الكمية والكيفية للظواهر المدروسة.[٤٠] وهكذا يتبين أن نموذج علم الاجتماع المتأمل في ذاته يدعو بقوة إلى الربط والحوار بين جانبي الازدواجية في الظاهرة المدروسة وفي العمل العلمي السوسيولوجي. أي أن هذا الأخير يجب ، من ناحية، أن يعطي أولوية لدراسة كل من الجانب الكيفي والكمي للظاهرة الاجتماعية وأن يفتح الحوار، من ناحية أخرى، بين العمل الميداني والعمل التنظيري في مسيرة كسب رهان الفهم والتفسير للظواهر والعمليات الاجتماعية (les processus sociaux).

ومما تقدم يمكن القول بأن مفهومنا للرموز الثقافية المتعدد الرؤى في هذه الدراسة يندرج في فلسفة رؤية علم الاجتماع المتأمل في الذات.[٤١] ففي محاولتنا لفهم وتفسير ظاهرة انفراد أفراد الجنس البشري بأمد حياة أطول استنجدنا بعدد من الرؤى المعرفية تمثلت أساسا في علم البيولوجيا وعلم المورّثات (Genetics) وعلمي الأنثروبولوجيا والاجتماع والفكر الفلسفي والرؤية الدينية الإسلامية لعالم الرموز الثقافية . فأكدنا على أهمية الترابط والحوار خاصة بين الرؤى الأنثروبولوجية السوسيولوجية ورؤية المنظور الإسلامي للرموز الثقافية، فوجدنا أن إبستيمولوجيا القرآن للرموز الثقافية تتناسق مع التحليل السوسيولوجي الأنثروبولوجي الموضوعي للرموز الثقافية بالنسبة لدور هذه الأخيرة في إطالة أمد حياة أفراد الجنس البشري.

---

٣٩ P. Bourdieur et L. J. D. Wacquant, *Réponses* (Paris: Le Seuil, 1992), 31-32.
٤٠ P. Bourdieur et L. J. D. Wacquant, *Réponses*, 39.
٤١ P. Bourdieur et L. J. D. Wacquant, *Réponses*, 43-70.